رواية

خالد حميدة

غريبٌ في الحلم

دار حروف منثورة للنشر الإليكترونى

نوع العمل: رواية

اسم العمل: غريب في الحلم

اسم المؤلف: خالد حميدة

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى ديسمبر 2018

تصميم الغلاف : فريق الدار

تنسيق داخلي: فريق الدار

تدقيق لغوى: الكاتب نفسه

مؤسس الدار

مروان محمد

Website: https://horofpdf.wixsite.com/ebook

Fan page: http://facebook.com/herufmansoura

Email: herufmansoura2011@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني المجاني ولا تتحمل أي مسئولية اتجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

غريبٌ في الحلم

رواية

خالد حميدة

الإهداء:

إلى كلِّ الذين سكرتِ الحربُ من آلامِهم

إلى الذين يحتسبون مصائِبَهم عندَ الله

تمهيد

حياةُ كلِّ فردٍ مدرسةٌ قائمةٌ بحدِّ ذاتِها ينهلُ منها الآخرون وبهذا العملِ سلّطْتُ الضوءَ على مسيرةِ أحدِ الشبابِ في سوريا في ظلِّ الأزمةِ الحاصلةِ منذ سبعةِ أعوامٍ ونيف مستخدماً لغةً سلِسةً بليغةً معاصرةً، وقد نهلتُ من خبراءَ بالروايةِ أثناء الكتابةِ لِتخرجَ بهذا الشكلِ مُتنوّعةً بين الحوارِ والسردِ مستعيناً ببعضِ الموروثِ العربيّ الأدبيّ العريقِ.

- 1 -

قادماً من ساحة سعد الله الجابري متّجهاً إلى حيّ العزيزية في مدينةِ حلبَ وسطَ حرٍّ قائظٍ آثرتُ الدخولَ إلى الحديقةِ العامةِ لأنالَ بعضَ الظلالِ، وقد أرّقني السّيرُ الشاقُّ، ألقيتُ بجسدي على كرسي هرمٍ وقد تعاونتِ الأشجارُ فيما بينها على تدثيري بظلٍّ لطيفٍ، وحفيفُ أوراقِها يبعثُ الطُّمأنينةَ في الروحِ وغِبتُ أراني ولا أراني.

أجدني ولا أجدني.

أنشدني ولا أنشدني

رقصتُ مع الحياة

ها هي حلبُ أحدِ أهمِّ المدنِ تتراقصُ أطلالُها أمام سلطانِ الموتِ أملاً منها بأن يتركَ البقيةَ المتبقيةَ منها تعيشُ وتهنأُ بالسلام وذلك بعد أن انهارَ أكثر من نصف أبنيتِها ـ نتيجةَ الجهلِ السائدِ ــ وصارت هباءً منثوراً في الهواءِ.

خالد أحدُ شبانِ حلبَ وهو كغيرِهِ من الشبابِ يطمحُ إلى مستقبلٍ بهيٍّ يؤمّنُ له استقراراً مادياً ومعنوياً، ويسعى لذلك بالعلمِ أحياناً وبالعملِ أحياناً أخرى، إلا أنَّ ما حدثَ في محيطِه كان له أكبرُ الأثرِ في تراجعِ همّتِهِ نحو طموحِهِ ونالَ منه القنوطَ واليأسَ وغلبَت الدنيا على أمرِه ونالَت منه قدرَ ما تستطيعُ ولم تدعْ له الهمومُ أيَّ مجالٍ كي يرجعَ سيرتَه الأولى – برّاقاً نشطاً مفعماً بالحياةِ – فتكاثرَت همومُه يوماً بعد يوم، أولُ تلك الهمومِ كان حباً لن يجدَ إليه طريقاً وعندما أرادَ البحثَ عنه صُدِمَ بتأنيبٍ من الداخل والخارج، وثاني همٍّ تمثّلَ بعزّةِ نفسِه التي لا يكسِرُها إلا لخالقِه، وهذا ما يُسبّبُ له ضيقاً مادياً وأرقاً يكبرُ، ثالثُ الهمومِ تجلّى بتتالي الأيامِ وتناقصِها من عمرِه دونَ أن يُحقّقَ أيَّ هدفٍ ولا حتى تقدّمٍ إلى مرامِه، وآخرُ الأشياءِ التي تقضُّ مضجعَه هو شيءٌ جوهريّ – هكذا يراهُ – في كلِّ مجتمعٍ عدا مجتمعِه الذي حوّلَ الحبَّ إلى تجارةٍ خاسرةٍ إلّا عددٍ ضئيلٍ جداً من المهتمين والباحثين ألا وهو الأدبُ.

خالد يبلغُ من العمرِ ثمانيةَ عشرَ ربيعاً قضى نصفَها الأول في اللعبِ واللهو وقضى ربعاً متقلّباً بين اللهو والعلمِ

والطيشِ والعملِ والربع الأخير أمضاهُ في البحثِ عن سُبُلٍ تُؤمّنُ له مستقبلاً تقرُّ به عينُه وقد حباهُ الله بالكثيرِ من المزايا، فكان شاباً قويمَ الجسمِ رشيقَ البنيانِ، بهيَّ الطلةِ حسنَ الخلقِ ويسعى لرسمِ الضحكةِ على شفاهِ الأشخاصِ الذين يحبّهم وخاصةً أهلَ بيتِه الذين كانوا بحياتِه مثل قطعةِ الذهبِ التي تزيّنُ المعصمَ وتأسرهُ في ذاتِ الوقتِ، ولمّا لم يجدْ طريقاً للخلاصِ لجأَ إلى الكلماتِ لتغطّيَه بحنانِها وتسرَه بنورِها وتسترَ عيوبَه بعذوبتها كيف لا وهي التي تصنعُ كلَّ شيءٍ؟ فعاش مع الكلمات قروناً طوال مرَّت خلال شهر واحد.

حلّ الربيعُ ورحلَ بنشوتِه وزهوتِه وأتى الصيفُ وما زالَ خالدٌ يُكابد أنواعَ الأسى والقهرِ وزحفَ اللونُ الأصفرُ إلى الأشجار وتلاعب بأوراقها وعوتِ الرياحُ بين الأغصان إيذاناً بقدوم فصل الشتاء.

في أحد الصباحاتِ الخريفية استيقظَ خالدٌ من رقادِه مُتململاً من عيشته الضنكِ وألقى اللحاف على الأرض وألقى معه بضعَ نظراتٍ نحو السماء، فكانتِ الغيوم قد تكدَّست بفوضى في آخرها، وجال في البيت المتكوّن من بِضع غُرفٍ وهمّ أن

يتناولَ بعضَ الطعامِ إلا أنَّه لم يفعلْ ورتّب هندامَه كيفما اتّفق وتوجّه نحو عمله شارداً مُتفكِّراً في حلٍّ يُنهي معاناتِه، وإذ برفيق عمره يلقاه بالترحيبِ والمودّةِ ويسألُه عمّا آلت إليه الأيام في وضعِه التعيسِ، فراح يشكو منه وعليٌّ – رفيق دربه – يسمع منه ما يجولُ في تجاويفه من حسراتٍ وعبراتٍ وها هو ذا عليٌ بعدما فرغَ خالدٌ من شكايته يقدّم له اقتراحاً وهو يقولُ:

- بما أنَّ وضعكَ هنا يزدادُ سوءاً فلِمَ لا تسافرُ؟
- كيف أسافرُ ألا تعلمُ أنَّ مَن لا خيرَ فيه لوطنِه فلا خيرَ فيه أبداً!
- هذا الحالُ ينطبقُ إذا كان فيه البلدُ يسمو إلى الأمام، ألا ترى أنَّ البلاد – بالجهل السائد - تسير نحو حتفِها بسرعةٍ هائلةٍ وأبناؤها مشغولون في زيادة خرابِها.
- ولكن يا عليُّ هل تريدُني أن أتركَ الوطنَ وهو في أشدِّ محنةٍ وأولّي الأدبارَ.
- لا لست أطلبُ منك هذا ولكنَّك إن بقيت ستُضيّع سنواتِ عمركَ هدراً وتُذهب نفسك أدراجَ الرياحِ.

- كيف ذلك وهل أتركُ أبي – الوطن – وهو يُحتضَرُ لأذهبَ لغربةٍ غانيةٍ أبني مُستقبلاً في أحضانِها أجهلُ ملامحَهُ.
- يا صديقي يا خالدُ إنَّ زمنَ حبِّ الأوطانِ والفقاعاتِ التي تتبع ذلك قد غادرَ إلى مواضع النسيان.
- ما معنى ما تقولُ يا عليُّ؟
- معناه أنَّ الوطنَ سيعمُرُ في نهايةِ الأمر وأنت الآن ينبغي أن تسافرَ وتبني مستقبلاً لك وترجعَ حين يتوجَّبُ عليك الرجوع لتساهمَ في عملية البناء والعمران لهذا الوطنِ.
- آهٍ على هذا ومن هذا الذي يسمى وطناً.
- لا وقتَ للتأوهاتِ إنَّ الوطنَ يتآكلُ وتتداعى أركانه فلا تبقى هنا لتشاركَ في الخراب، لقد وصلْنا لمرحلةٍ في هذا البلدِ إن لم تقتلْ فيها ابن وطنِك تكونُ خائناً وهذا أشنعُ خرابٍ فأيّهما تفضّل يا خالدُ؟
- وهل يكونُ النأيُ بالنفس هو الحلُّ؟
- أجل هو الحلُّ لمن بعمرك ولديه من الأحلام ما لديه.

وافترقا بعد حوارٍ حول السفر والوطن وأمضى خالدٌ يوم عمله بحضورِه الجسدي أما عقلُه فكان يقلّب كلمات علي من كافّة الجوانبِ، وأنهى خالد يوم عمله وانصرفَ إلى بيته وما زال رأسه مشغولاً بأفكارِ عليّ وكلماتِه ومن ثم وصل البيتَ وكانت نفسُه ترغبُ عن أيِّ طعامٍ فألقى تحية المساء على أهله وقصد غرفتَه واستبدلَ ثياب البيت بثياب العمل واستلقى على السريرِ وبدأَ يُعيد خواطرَ عليٍّ بشأنِ السفرِ حرفاً حرفاً وأمضى ليله أرقاً مؤرقاً يُجافي النومُ عينَه وتجافي عينه الكرى.

وتتالتِ الليالي وكلامُ عليٍّ يكبرُ في نفس خالد إلى أن اتّخذ قرارَه بالسفرِ ولم يكنْ بعدُ قد حدَّد وجهة، فقد واجهته عقبةٌ لأنَ والديه أكدّوا على نظرية المعصمِ والسوارِ واشتدَّتِ الخصومةُ وزادتْ فوق همومِه همّاً آخرَ، ولم يعدْ يرغبُ بحياة أو ممات وزهدَ بأيامه ولم يعدْ يبالي بأيِّ حدثٍ لكنَّه في ذات ليلةٍ عقدَ العزم على الرحيل متحدّياً كلَّ ما حوله ونفّذ مأربَه مع تباشيرِ الصباح فحمل حقيبةً صغيرةً حوت بعض ثيابه وبعض النقودِ التي كان قد ادّخرها دون أن يُعلم أحداً بذلك واستقلَّ الحافلة مولّياً وجهه شطر بلاد الأرْز.

ما أكثرَ ما شقي على الطريق فقد كان يحوطُه في كلِّ حين العنف والدم السائل من الأيدي والوجوه والكثير الكثير من رهبة الموت وبدلاً من أن يصلَ قبل المغيبِ إلى بيروتَ وصل مع تباشير صباحِ اليومِ التالي وحالما وصل آثر التجوالَ في المدينة على الارتياح بعد أن شاقَته وعثاءُ السفر فألفى مدينةً لا تعرف إليها الرتابة طريقاً، ويغمرُها النشاطُ وتفيضُ منها الحياة وكم من تهليلٍ وترحيبٍ لاقاه من أهل بيروتَ حين عرفوه أنه ينتمي إلى جارتِهم المنكوبةِ بأيدي أبنائِها، ووضّح ذلك من خلال لميس الحسناء التي لاقاها عند المطعمِ وهو يتناولُ وجبةَ فطورِه الأولى وما لبثت أن تحولت النظراتُ إلى حوارٍ:

- مرحبا
- أهلين
- أنت من الجنوب
- لا أنا من سوريا
- جدْ
- إي والله

- يا دللي علِّي عم يصير فيها، يا حرام عليكِ يا سوريا والله ما بتستاهلي اللي عم يصير فيكي.
- طب شو بطلع بالإيد، البلد عم تخرب أدام عيونا وما عم نحسن نعمل شي.

واشتركا سوياً في متابعةِ الفطورِ متحادثَين عن أنفسهما وقرَّرتْ لميس بعدما عرفتْ قصة خالد أن تحتوي أحزانه وآلامَه بأسلوبها وبلدها وأوّل الأمرِ.

- إي وين عم تنام
- لسه ما قضيت ولا ليلة هون اليوم الصبح وصلت بس بدبر حالي بشي محل لوقت ما ألاقي شغل وأدبر محل نام فيه على طول
- إي خلص معناها اليوم بتجي بتنام عندي بالبيت
- لاااااء ما بيصير
- عنا هون عادي وبعدين لو فيها شي مشكل ما كنت قلتلك تجي لعندي

واصطحبت لميس صديقها الجديد إلى بيتها بعدما انهيا تناول الفطور في استراحة البور وانتقلا بالسيارة من منطقة إلى

أخرى حتى وصلا إلى جونية الراكدة عند المنتصف بين البحر والجبل وشدَّ خالد جمالها الخلاب وأسرَه منظرَ الأشجارِ وهي تتقافز على سفوحِ الجبال وسحرتْه أيضاً الأكواخُ المترامية على أطرافِ الطريقِ، وأوقف السائق محرِّك السيارة أمام مبنىً بسيطٍ تتموضع بجانبه كنيسةٌ قديمةٌ قدم التاريخ.

وترجّل خالد ولميس من السيارة وصعدت لميس بأناة على درجِ البناءِ وتراقصت تموجاتُ ثوبِها الأبيض فغدت كأنَّها فراشة تتنقَّل بين الأزهارِ وتبعَها خالد مشدوهاً بجمال المكان الذي تقيم فيه لميس ولمّا وصلا إلى الشقة ألفى خالد نفسه في شقة تعمُّها الفوضى، ثيابٌ ملقاةٌ على الأريكة وبقايا طعامٍ على طاولةٍ وبضع أوراقٍ مبعثرةٍ هنا وهناك وجهاز تلفازٍ يعمل تُرك يعمل لا لشيء وكتابٌ مفتوحٌ مُستلقٍ بجانب التلفازِ وحولَه بضعةُ أقلامٍ مبعثرةٍ، وجلس خالد على أريكةٍ بوسطِ بهو المنزل والحياءُ يتملَّكُه من الداخل وما زالت عيناهُ تُمحّصان أركان الشقةِ ولميس ترتب فوضويتها بعجلةٍ، ولما انتهت حدّثته:

- إي شو تشرب؟

- لاااء ما بدي عذبك.
- لا عذاب ولا شي أنا رح أشرب هوت شوكليت شو رأيك؟
- طيب خلص متل ما بدك.

وأنهت لميس تحضير كوبا الهوت شوكليت وجاءت لخالد واتّخذت مجلسها فابتدرها خالد:

- هل تقيمين بمفردِكِ؟
- نعم.
- وأين والدكِ وإخوانك؟
- دعْك من والداي أمّا إخوتي فما أكثرهم لدرجة أنّي لا أعلم عددهم.
- مهلاً لميس لا تتحدثي بالألغاز.
- ألغاز؟

وتطلقُ لميس ضحكة اكتنفها الدلالُ بطريقتِها الخاصة.

- لا أبداً ليست ألغاز إنّما هو الواقع.
- لميس أنا لستُ بوضع من يقبل الدخول في متاهاتٍ.

- **قلْت لك ليست متاهات أو ألغاز كما تحسبُها، لكنّي لا أودُّ أن أدخلَك في دوامات أنت في غنى عنها.**
- **ولكن يا لميسُ بدأَ الفضولُ ينهشُني.**
- **إذا كنت مصرّاً على أن تعرف قصتي فليس لي ذنب فيما سيعتريك بعدها.**
- **حسناً لا بأسَ.**
- **كان ذلك قبل عشرين سنةً في مدينة مرجعيون الجنوبية عندما وصلتِ القواتُ السوريةُ إلى المدينةِ ومن قبلها كانت القوات الإسرائيلية تحتلُّ جانباً من المدينة حينها كانت أمي في ريعانِ شبابها ولم تكن قد تزوّجَت بعد وبينما هي في أحد الحقول اقترب منها جنديٌّ سوريٌّ وآخرُ إسرائيلي وقاما بسبي جمالِها واغتصابِها وحملَت بي كرهاً ووضعتني كرهاً في أحد الأديرةِ المترامية على أطرافِ المدينةِ.**

– 2 –

على جرفٍ صخريّ وبعيداً عن ضوضاء المدينةِ والقرى وبمكانٍ أشبهَ بصحراءَ في الهدوءِ الذي يعمُّها وأشبه بالغابة في النشاطِ الذي يسودُها تموضعَ بناءٌ لم يكنْ كغيرِهِ من الأبنيةِ، حجارتُه كانت من البازلتِ البركاني وتمَ بناؤُه ليتحدَّى عادياتِ الزمن وتنافسَت من حوله أشجار الحورِ والصنوبرِ لحمايتِه وتوريتِه ومن دونِها غاباتٌ صغيرةٌ من السوسنِ وإكليلِ الجبلِ والأقحوان وترامَت في بقعٍ ما جماعات من النرجسِ والصعترِ البري وحينما كان يحلُّ المساء كانت تتكفّلُ أوراقُ الصعترِ البري بنشرِ رائحتِها في المكانِ، أمّا نهاراً فكانتِ الفراشاتُ تتولّى نقلَ عبيرِ أزاهيرِ الأعشاب من وإلى جوار الديرِ وتشكّلت مع الزمن روضة تسحرُ الألباب ليلاً خاصة عندما يبسط البدر ضياءَه في أرض

السماء وتصفو لها الروحُ وتزدادُ عذوبتَها نهاراً لأنَّ في تكوينِها وفي خلق الإنسانِ إبداعٌ ما بعدَه إبداع.

نشأتُ وترعرعتُ في ذلك الديرِ بصحبةِ عدة رهبان اتّخذوا الدنيا زهداً أشدَّ زهدٍ واجتنبوها أكثر اجتناب، ولمّا قاربتُ سنَّ الرابعةَ عشرةَ مللتُ من عيشة التقشُّف والتقتير فافتعلتُ كثيراً من المشاكل في سبيل الخروج – مرةً ألقيتُ الأوساخَ في المذبحِ وأخرى زرعتُ فتنةً بين الرهبانِ – وتحقَّقَ لي ما أروم في أحدِ أيامِ تموزَ الحارّةِ، حينئذٍ جمعتُ ثيابي وأشيائي بحقيبة صغيرة وقصدتُ بيروت، وكان لا بدَّ لي من النزولِ أول شيءٍ إلى مرجعيون لأستقلَّ سيارة تقلُّني إلى وجهتي وبما أنّي لا أملكُ النقودَ اضطررتُ إلى التوسُّل والتسوّل إلى الأشخاص كي يعطوني حفنةَ نقودٍ ولكن كلّهم صدّوني ورجعت إلى الدير منكسرةً خائرةَ القوى ولدى وصولي شعور الرهبان بقدومي فأبَوا أن أقيمَ بينهم من جديد لكنّي رجوتهم فوافقوا بشرطِ أن أباتَ لليلة واحدة فقط وحيث إنّي كنتُ راغبةً بالرحيل أكثر منهم انتظرْتُ الجميعَ حتى أسلموا أنفسهم للنوم وقمت من مرقدي وتوجّهت نحو الحقولِ الصغيرةِ المتواجدةِ حول الديرِ وصنعتُ باقاتٍ من السوسنِ

والأقحوان ونسّقْتها كيفما اتّفق كي أبيعها وأحصلَ على النقود بدلاً من التسوّل والتوسّل وخبّأتُها في مكان قريب وخلدتُ إلى النوم لكنَّ عيناي لم تكن ترغبان به وأمضيت الليلَ ساهرةً.

بعد متسعٍ من الوقتِ بدأتْ خيوط الظلام تنازعُ خيوط النور فكانت الغلبةُ للأخيرة وحلَّ الصباحُ بعدما استيقظتِ الشمسُ من سريرِها الكائنِ في أقصى السماءِ، وجاءَني أحدُ الرهبان يقرعُ باب حجرتي بشدّةٍ ويأمرُني بالنهوض وقمتُ من فوري فحملتُ الحقيبةَ التي تحوي ثيابي وأشيائي وخرجتُ أمامه دون أن انبسَّ وولّيت وجهي شطر مرجعيون وعرجتُ إلى المكانِ الذي خبّأتُ فيه باقات زهوري لأبيعَها هناك وكان عددها خمس أو ست باقات نسّقتُها على عجلٍ خشيةَ أن يشعرَ بي أحدٌ وحين وصلْت المدينةَ جلسْتُ على أحدِ الأرصفةِ وعرضْت ما لديَّ على المارّةِ وما إن حلَّتِ الظهيرةُ حتى كنتُ قد بِعتُ كلَّ ما لديَّ من باقاتٍ وجنيتُ منها خمسين دولاراً تكفي لأبتاعَ بعض الطعام أقيمُ به أودي، وبعدها توجّهتُ لبيروتَ واشتريت سندويش وقصدتُ مكانَ تجمُّعِ الحافلات المتوجّهة إلى بيروتَ، بعدما سألت عديدَ الأشخاص

ولما وصلت اخترت الركوبَ في أوّل حافلةٍ منطلقةٍ إلى هناك ولم يعدْ بالحافلة سوى مكانٍ شاغرٍ قربَ رجلٍ عجوزٍ، وتبادلْنا سوياً أطراف الحديث، وعندما سألني عن والدايَّ قصصتُ له قصة أبي كما رواها لي الرهبان من قبلُ وسردْتُ له حكايتي في الدير إلى أن تمرَّدتُ على الرهبان في سبيلِ الخروجِ وذلك ما تحقَّق لي وما إن انتهيتُ حتى حدّثني عن نشأةِ هذا الديرِ وما كانَ في سالف عصره، قال لي:

- ـ يا ابنيتي أنتِ لستِ لقيطةً لكنْ صحيحٌ والدتكِ كانت ضحية.
- قاطعتهُ: لكن ما الذي تقوله أيُّها العجوز؟؟
- ـ يا لميس دعكِ من التعجّب والتأفّف لأنّك ستسمعين من أمر هذا الديرِ كلّ عجيب.
- هه حسنا. أجبته.
- بدأت هذه القصة في عام 1919 عندما بدأ الحِراك الثوري ضدّ الدولة العثمانية، وكانت منطقةُ الدير الراهن جوف جبلٍ صغيرٍ فاتّخذها الثوار ملجأً ومخبأً لهم لكن سرعان ما اكتشف الجنودُ الأتراكُ أمرَ هذه المغارةِ فقامت المدفعية آنذاك بِدكِّ المغارة فوق رؤوس

مَن داخلها من أسلحة وأنفس وغدت ركاماً بركامٍ وإبّان خروج العثمانيين من لبنان عزمَ بعض شبّان القرى المجاورة لمكان الديرِ على إعادة بنائه ونظّموا جدولاً لتسيير الأعمالِ وبعدها باشروا بالعمل فأزالوا الأنقاض أولاً ثم نقلوا الأتربة والحجارةَ إلى وادٍ قريب غير ذي زرعٍ، ولما انتهوا أعادوا هيكلة المغارة التي كانت سيرة الدير الأولى وجعلوها فيما بعد شاهدةً على زلّاتهم وخطاياهم وبذلك اكتسبتِ المغارةُ سمعةً سيئةً كلّ السوءِ وعاد الاحتلالُ من جديد لكنْ هذه المرة كان فرنسياً وعادتِ المغارة لتصير مصدرَ الضربات نحو الأعداء ثم ما لبثَ أن غادر الاحتلال مذموماً مدحوراً.

وبعد كثيرٍ من الأيام تنبّه الرهبان إلى بيئة المغارةِ وكيف لها من الصفاءِ والنقاءِ والخلاءِ ما يُؤهلها لتكون ديراً فجمعوا الأموالَ والهبات والمعوناتِ من أصحابِ الخير والعطاء وقاموا بإعمار الدير بشكلٍ متينٍ، وأولوه أهميةً كبرى معتقدين أنَّ الله سيحاسبهم إن لم يتمّوا بناءَه بالشكل الأمثل فعمدوا إلى زيادة الأسس وبدلاً من أن يضعوا ثمانيةَ أعمدةٍ يقوم عليها البناء

وضعوا عشرين عموداً صلباً وما إن انتهوا من بنائه حتى نشبتْ بينهم خلافاتٍ شتَّتْ شملَهم وفرّقَت جمعَهم وكانَ أصلَ الخلافِ رئاسة الدير.

أنطوني يقول: يجب أن تكون رئاسة الدير لأكثرِنا علماً ولا أعتقد أن أحداً منكم لديه علماً يضاهي علمي ويرد عليه فيليب: ليس مَن لديه العلم بمستوى من بذل الجهد والعناء في سبيل إعمار الدير وفيما بعدُ سنكملُ تحصيلَ العلمِ الذي ينقص كلَّ فردٍ منَّا وانقسمت الجماعةُ بين مؤيدٍ لأنطوني ومؤيدٍ لفيليب، وبدا الانقسامُ جلياً لمَن هم في القرى المجاورة واستفحل الخلافُ حتى شاع في أرجاء الجنوب اللبناني.

في مكان آخرَ من الجنوب ثمّة هناك من يُثير الرعبَ والهلعَ والألمَ العميقَ بين السكانِ دونَ أن يُوجِدَ حلّاً لهذه الآفةِ التي ملّها الناسُ، وما كان ذلك الأمر غير بضع شبابٍ امتهنوا العنفَ والسلبَ واستمرارهم على ما هم عليه يزيد من قلقِ الأهالي الذين خدموا أنفسهم بطريقةٍ غير مباشرةٍ وذلك عن طريق تناقلِهم أخبار الدير الذي تلفُّه الوحدة وأيضاً المعلومات التي تؤكّد

وجود خلافات كبرى بين الذين يتّخذونه سكناً من الرهبان وتناهى خبر ذلك الدير إلى مسامع الشبّان وعقدوا العزمَ على الظفر به، وكان لهم ما أرادوا عندما اقتربوا من مكان الدير خلسةً حينها كان الوقت ليلاً وقد تأخّر القمرُ عن الحضور في ذاك المساءِ وقرع أحدُ الشبّان الباب مختبئاً وراء وجه عابرِ سبيلٍ ضلَّ طريقَه، وما إن فتح أحد الرهبانِ حتى عاجله الطارقُ بحربةٍ في صدره خرَّ على إثرها مضرجاً بدمه ثم ولجَ الديرَ بقيةُ أفراد العصابة وأجهزوا على من كان بداخله ثم عمدوا إلى ارتداء ملابس الضحايا لكي يقوموا بإخفاء أنفسهم وأصبحوا رهباناً لكن إذا حلَّ المساء تحوّلوا لصوصاً، وهكذا توالت عليهم الأيام مصبحين رهباناً ممسين لصوصاً وعتو عتواً كبيراً فلم يكتفوا بالنهب والقتل فحسب بل تطوّر الأمرُ لأكثر من ذلك.

راحوا يسلبوا الزوجاتِ من الأزواجِ ليلاً ليستمتعوا بهنَّ نهاراً جهاراً في الدير ثم يقتلوهنّ أو يئدوهنّ أحياء دون أن يكون عليهم رقيبٌ أو حسيبٌ ودون أن يعلم أيضاً أهلُ القرى من الذي يقوم بالسلبِ والنهبِ

والخطفِ متأكّدين أن قاطني الدير أشخاص شغلهم حبّ الله وعبادته عن شغل الدنيا وحبها، والآن يا صغيرتي جاء دور قصتك الحقيقية بعدما عرفتِ هؤلاء الذين يقطنون بالدير.

كان زوج أمكِ يملك نصيباً وافراً من المال والسمعة الحسنة وتوفيت زوجته الأولى إثر مرض عضال لازمها عامين وبعدها قدّمها هدية للموت ولمّا كان له حظاً من الدنيا عقد العزم على الزواج من فتاةٍ بعمر الصبا واختار أمك التي كانت حينها فتاةً بعمر الزهور ولها من الجمال ما يفوق جمال قريناتِها مجتمعات لكن الفقر كان كابوساً مستمرّاً يُخيّمُ فوق رؤوسِ عائلتها ولما تقدّم لخطبتِها كان ذلك بمثابةِ نافذةً فُتحت من الجنة لهم فوافقوا على الفور وتمّت مراسم الزواج كيفما اتّفق وانتقلت أمكِ للعيش في كنف زوجها الجديد، وما إن انقضت بضع شهورٍ حتى داهم أفراد عصابة الدير المنزل وانتشلوا أمك من بين يدي زوجها الذي وافته المنية بعد تلك الحادثة بأيامٍ، وانشغل أقاربه بأمواله المتروكة وتناسَوا أمر أمك التي تعاني

الاضطهاد وأشنع أنواع العنفِ اللفظي والجسدي ولمّا كانت أمكِ ذات جمالٍ بارعٍ آثر المجرمون إبقاءَها حية كجارية لديهم، ولمّا حملتْ أمكِ بك من أحدهم ما تجرّأ أحدٌ منهم على الاعتراف بكِ كابنة له ذلك أن الجميعَ كانوا قد عاشروها وتتالت الأيامُ واستمرَّ مع تتاليها العنف والضرب والذلُّ بحقِّ المسكينةِ أمّك إلى أن بدأت بوادر الحمل تظهر عليها وما كان من الغاوين سوى الإمعان في العنف وضربوها أقسى الضرب أملاً منهم بأن تجهضَ لكنّهم فشلوا بذلك وحين حلَّ الشهر السابع من حملها لم يحتمل الجمع أن يكون بينهم مولود وخاصّة أنّهم جمعٌ وقلوبهم شتّى فأقدموا على تعذيب أمك حتى الموت لكنَّ الجنين الذي كان يرقد في رحمها لم يمسسه سوء وخرج إلى الدنيا بصراخِه البريء هذا المولودُ هو أنتِ.

- يا عمي شو هيدا اللي عم تحكيه ومين أنت حتى بتعرف كل هالأشيا.
- - تمهّلي يا فتاتي سأروي لكِ بعد حين ما تطلبين وستعرفين حينئذٍ مَن أنا لكن دعيني أكملُ.

- حسناً لكنّي لا أطيق صبراً حتى أعرفَ من أنت؟
- بعدما أقبلتِ على الدنيا ببراءَتك وفوق كلِّ هذا موت أمّك أضحى بقاءَك على قيد الحياة أمراً محالاً والجمع كلّهم ذكورٌ لا خبرة لديهم بأمور الأطفال وحاروا في أمرهم ما يفعلون لولا أنَّ أحدهم قام بأخذك إلى والدته بعدما قال لصحبه أنّه ذاهبٌ للتخلُّص منكِ، وأنتِ كبرتِ في كنف تلك المرأة العجوز وعندما أصبحت في سن الرابعة توفيت أمّ ذلك الرجلِ العاقِّ فاضطرّ لإحضارك من جديد وإعلام شركائه بما فعل فقبلوا وجودك على مضض بسبب الواجبات التي يوجدها وجودك.

وحين بدأتِ تكبرين أكثر وبدت علامات الأنوثة تظهر عليك كانت شهواتهم تغمر صدورهم وحسناً فعلت حينما بدأتِ بزرع الفتن بينهم بذلك أنتِ أنقذت نفسك من براثنهم، وها أنتِ ذي متوجّهة لحياةٍ جديدةٍ كلياً في بيروت.

- بس لسه ما قلتلي مين أنتا؟
- ـ أنا أبُ ذاك العاق الذي استودعك عند أمه حين كنتِ في المهد وابني بالرغم من كلّ ما يرتكبه من آثام

وخطايا إلا أنّه يطلعني على كلّ ما يفعل وما يجول بقرارته – يحسبني ربّه الغفّار – وهو مثله مثل من معه من الضالّين، والآن حان الوقت لكي أفعل ما يجب فعله منذ وقت سابق، ها أنا ذا متوجّه لمكان بعيدٍ بعيد عن ابني مهجة كبدي وتحرق اللوعة قلبي وتعصف الصبابة بفؤادي، إنَّه مهجةُ كبدي وسأنَسى مع مرورِ الوقت أن لي ابناً وسأعيشُ على هوامشِ الأيامِ إلى أن تحضرُني المنية فالذين بمثل سنّي لم يعدْ لهم متّسع من الوقتِ للأحلامِ والإصلاحِ.

تتابعً لميسُ

- وتزامنَ وصولُ الحافلةِ لبيروتَ مع انتهاءِ حديثِ العجوزِ وافترقْنا في المكانِ الذي التقيتك فيه اليومُ وأمضيتُ أيامي بين التسوّلِ والدعارةِ إلى تملّكت هذه الشقةَ كي آوي عليها حين ينالَني التعبُ وحين أطلبُ الراحة ولقد مضى على وجودي هنا ثلاثُ سنواتٍ وقد جاءَني منذُ بضعةِ أيامٍ خبرُ وفاةِ العجوزِ – ألقى بنفسِه أمامَ سيارةٍ كبيرةٍ فسحقتْ عظامَهُ – وهذه قصتي من ألفِها ليائِها.

واعتصرَ خالدٌ رأسَه لهولِ ما جاءَ بقصةِ لميس من معاناةٍ، وحاله يصيحُ: تباً لمجتمعٍ أجبرَ فتاةً بزهوِ الياسمينِ على بيعِ جسدِها بسبب الفاقةِ وقبل ذلك اللعنةِ على أولئِك الذين اتّخذوا من مسوحِ الرهبانِ ستائراً لجرائمِهم وأيضاً الويلُ كلّ الويلِ للذين دخلُوا بلداً على أملِ إزاحةِ العدوانِ عنه فإذا هم أولُ المعتدين على الأرضِ والعرضِ.

ومرتْ بعضُ أيامٍ وخالدٌ يحاولُ جاهداً العثورَ على العملِ كي يؤمّنَ سبيلَ العيشِ له ولصاحبتِه فقد أخذَ على عاتقِه أن ينتشلَها من بؤرة الضلالِ التي غشيتْ روحَها، وأسف اه على خالدٍ، تشقّقت قدماهُ من كثرةِ البحث عن بابِ رزق لكن كلّ الأبوابِ كانت مؤصدةً ولميس تتابعُ العيش بغيّها وضلالِها، وذات مرّة جرّبت أن تجرّهُ إلى رفثها فأبى واستعصمَ قائلاً: إنّي أخافُ الله ربَّ العالمين، ولي عندك رجاء أعطِني بعض النقودِ ولن تريني هنا بعد الآن.

- لكن يا خالدُ أيعقلُ أن تتركَني ها هنا وحيدة، لا بأسَ سأتابعُ مسيرتي الكفاحية.

ومدّت يدَها إلى جيبِها وسحبَتْ ألف دولارٍ وأعطَتْهُ إياها فتناولَ خالدٌ النقودَ من يدِها وغادرَ يرومُ الهجرةَ مرّة أخرى وجعل ألمانيا قبلَته خاصّةً أنّها فتحت أبوابَ اللجوءِ مؤخّراً.

من بيروتَ إلى مرسينَ ركبَ البحرَ خالدٌ وبه الشتاتُ والأملُ والرجاءُ والشوقُ مجتمعين في إحساسٍ واحدٍ.

من مرسين حتى برلين كانت رحلة لاختبارِ الصبرِ واليقينِ بالأملِ الحقيقي الذي يجنيهِ من نفسِهِ التي وضعَها في نقيعِ الاستبشارِ والتفاؤلِ، ذاتَ يومِ سطرٍ على سحبِ السماءِ: أشرعةُ الحنينِ التي أسدلتها ذاتَ بؤسٍ عادتْ لتلتصقَ بي وكأنَّها كفنٌ بيدَ أنّي لا أريدُ الموتَ في البعيدِ، يصرخُ فؤادي هل إلى مردٍّ من سبيلٍ؟ ووالله لولا الله ما طبقَ جفني على وسن وفيّ الآلامُ العظامُ أشدّها وتلك أوهامٌ هائلةٌ تركعُ دونَها الآمالُ هدّا لكن أنا لستُ أنا لو لم أكن عبداً لله بفضلِهِ ومنّتِهِ.

– 3 -

وفتياتٌ اتّخذت من الليلِ عشيقاً – يرسمُ لهنَّ الأحلامَ ويلوّنُ المُنى – ليروّحنَّ عن أنفسهنّ وعثاءَ الأيامِ وزفراتِها فما كانَ من الليلِ سوى أن أسبغَ عليهنَّ أسمائه فكانت الأولى سحر والثانية ميساء – حيث ميس النجوم في محرابه – والثالثة ليلى أما الأخيرة فهي نجمة، وهنّ على قدر عالٍ من البراءةِ والجمال حتى إن الأخيرَ يلفظُ أنفاسَه حين اجتماعِهنَّ وهاتيك أزهار الأنوثة بدأت بالتفتُّح في أجسادهنّ البضّةِ.

الفرحُ غشيَ أرواحَ البناتِ حين نجحنَ في الامتحان النهائي لمرحلةِ التعليمِ الأساسي ورحن يطرن كالفراشاتِ فوقَ الحياةِ متوجّهاتٍ من المدرسةِ إلى مكانٍ قريبٍ حيثُ بائعِ الحلوى ليضفن إلى حلاوةِ النجاحِ حلاوةٌ في أفواههِنَّ تلذّ بها الألسنُ وتطيبُ بها النفوسُ.

تمضي الأيامُ والبناتُ يتألّقْنَ في زهوٍ ويزدهينَ في ألقٍ، وعبقُ السرورِ ينضحُ من ثغورهنّ كما الشهد صافياً تحلو به العيون، أيامُ الصيفِ غدتْ كلّها أعراس ومواسم للهناء ويستحيلُ أن يمرَّ يومٌ دونَ أن يكونَ صباحه مرتعاً للبشائر

وظهره موئلاً لأنقى السرائر وأصيله موعداً لجني الورود وأكثرها زاهر، وحين الغروب كانت تلتقي الأفئدة الصغيرة لتنهلَ من الهناء الخالد والمعين الذاخر وفي المساء يكون اللقاء مع العشيق الباهر، فالبنات صديقات، صديقاتٌ للروح جمعتهن عُرى الوئام والألفة حتى اشتركنَ في حلمٍ واحدٍ ألا وهو البقاء مجتمعات في المرحلة التالية من مراحل الدراسة.

وأتى الخريف وبدأ الالتحاق بالمدارسِ واجتمعتِ البناتُ في صفٍّ واحدٍ وحضرَ المعلمون ليلتقوا بطلابِهم – غالبٌ أحدهم – وما كان له من اسمه نصيب حيث غلبته دناءته وانتهك البراءة المتمثلة في نجمة بعدما أطلق العنان لجموحه وسرق نورها فخبت النجمة وأفل ضياؤها وما عادت تشرق وغاصت في الغروب الأخير.

جهاد شاب في روح الصبا أتمّ أعوامه الثالثة والعشرون وأتت عليه الدنيا حتى جعلته كالرميم تجلّى ذلك من خلال فقدانه لنبع الحنانِ – أمه – وهو صغير فغدت أمه هاوية سحيقة لا قرار لها وذاق ألوان العذاب من زوجة أبيه حتى كره جنس النساء وما بقي لهن منه سوى المقت والقلى لكنه

برغم ذلك كان ذا سحر أخّاذ فوقع حبه في قلب ليلى وما فتئت تتقرب منه وهو يصدها بالقسوة تارة وبالصلف تارة أخرى ناكراً لحبها – كارهه.

اشتد بالزهرة الصغيرة – ليلى – الهيام وأغرتها الأشواق، صارت الصبابة تفور من مقلتيها والحب عصف بروحها وأتى عليها حتى جعلها سكرى وما هي سكرى سوى أن العشق ذوّب فؤادها وأتاها خاطر مجنون وهو أن تفرض نفسها عليه فكان ذلك في أحد الصباحات حينما التصقت به في الشارع وبدأتْ بالصُراخ مدعيةً أنه حاول سبيها وما كان من الجوار سوى أرغموه على إصلاح خطيئته والاقتران بها، وفي أولى أيام الزواج حاولت ليلى بدلالها وغنج النساء ومكرهن الإطاحة بكرهه لجنسها سوى أن حقده كان أكبر من حبها، فحبها بحيرة وحقده محيط، ومن شدة تقرب ليلى من جهاد شعر الأخير بضرورة العدول عن موقفه وحدثته نفسه أن يقربها لكن بغضه كان أكبر وفي كثير من المرات كان يجاهد رغبته كي يقربها ولا يقربها، وتوالت الأيام وحب ليلى يذبل في صدرها ويشيخ وهي في روح الصِبا وتساقط

منها الوداد العتيق حتى خلت من كل العواطف سوى الانكسار والخيبة وحزن دفين.

وأكملتا سحر وميساء دراستهما للمرحلة الثانوية ونجحتا واغتالت الفرحة قصتي صديقتيهما الأولى غارقة في أساها والثانية ترزح تحت عظيم البؤس، ولأنّ للحياة دورٌ في توزيعِ الشقاء فقد أتى دور سحر.

في أحد أيام الصيف وبينما سحر في نزهة مع ذويها وهي الفتاة الطيبة الغاية في البراءة والبساطة في التفكير حدّ السذاجة وكذا الاندفاع حدّ التهوّر وبعض عناد، افتتن بحسنِها صباح وهو يمرُّ بالجوار ووقعت في قلبه من اللحظة الأولى وقد كان مقبلاً على الزواج فسرّه أن رأت عينه شريكة حياته قبل أن تراها عين أمّه فقد كان من أسرةٍ محافظةٍ وتقدم لخطبتها وتيسّرت أمور الزواج وولَج حبّه قلب سحر دون استئذان وعاشا بعض سنيَّ العمر في دعة العيش ومتعته وغمر نهارهما النشاط واللهفة وليلهما الحب واللذة.

ولمّا كان صباح يكبُر سحر ببضع أعوام فقد كان ذا لب متبحر في علوم الحياة ومداخلها توّاقاً لنهل المزيد والمزيد من العلوم دون كلل أما سحر فما زالت عطور الطفولة تناغي روحها بشغف وذاك ما وسّع الفوارق بينهما فصباح يبلغ عمره ثلاثا وعشرين عاماً بينما هو ناضجٌ كفايةً ويحسبه أكثرُ الناس فوق الثلاثين من العُمر وسحر ذات الست عشر عاماً لم تستوعب بعد أن تكون زوجاً، الحبّ ينمو ويكبر بالتقادُم فقد أثمر حبّ صباح وهيام سحر بوليد له من البراءة أعذبها والطيبة أرقّها لكن مولد ذي البراءة أثارت العواصف في البيت فسَحر لم تكن كفؤاً لاحتضان طفلٍ صغيرٍ – كانت تسهر الليالي غاضبةً فقد كانت تحسبُه سببَ شقائها الأوحد وما طفقت تُناجيه: أما اكتفيت من تعذيبي، والطفل يُطحن تحت رحى الجوع، ونما الاختلاف بين الطرفين حتى وصل إلى خلاف ما لبث يكبر ويكبر، صباح يتعامل مع المشكلة الحديثة بكثير من الحلم والأناة وسحر مصرّة على عنادها بأن الطفل الصغير سبب شقائها الرئيس.

حدث ذات مرة أن أفلتت نفس صباح منه ووجه لسحر إهانة عظيمة فغاصت الأخيرة ببحر من الدموع في لجّة الأسى.

– يحرق السجام فؤادها وتصطلي بالعذاب المرير – هدأت قليلاً وما لبثت تئِنُّ ترثي قلبها المجروح ونفسها العليلة فما اعتادت أن تُهان في منزل أبويها.

ولمّا كان صباح ذا عقل راجح يغلب على قلبه وعواطفه فقد آثر استبدال زوجه على العيش الضنك صحبة سحر وتذمّرها من الوليد الذي لا تنتهي حوائِجُه، وهكذا ألقى سحر في شديد البؤس أعظمه – كانَ يقول في نفسه: كيف يلتقي السحر ذو النور المنعدم مع الصباح صاحب النور – وغرقت سحر في الهوان تحكي كل سحر مأساتها للنجمات تأسّياً بنجمة صديقتها.

وأتمّت ميساء تحصليها العلمي حتى تخرّجت من كلية الحقوق بتفوقٍ لاح سناه بين الأساتذة والمشرفين في الجامعة وابتاعت مكتباً صغيراً للمحاماة من مدّخراتها وببعض المساعدة وشرعت في العمل دون أن تأبه لرجلٍ أو زواجٍ بينما تعض قصص صديقاتها قلبها بين حين وآخر، ولما أينع الحبُّ في قلبها تمهّلت وما بادلت حازم - زميلها في العمل - ذات العواطف بل كانت تلاعبه بين القبول والرفض – بين التمنّع والتمتّع – لتختبر صدق مشاعره وإذ

به ينجح في كافة امتحاناتها وتزوّجا بعد خطبة تمّت على عجل و تمضي الأيام.

يحدث دوماً في مرافعاتها عن الوكلاء أن كانت الحروف تميس من ثغرها لتسلب الحضور ألبابهم وتفتنهم بألقها وبذلك بدأت تكتسب سمعةً تكبر وتكبر وذاك ما بدأ يثير احتجاج حازم فهو حازم بطبعه، الحبّ يعني له التملُّك والميس ميزتها الأولى لميساء وكأنّها اختارت اسمها وهي في المهد، كلّ حركاتها وسكناتها ميس والحزم طبعها الأوحد لبعلها وبدأ يستعر أوار الخلاف فما استغلّ الطرفان الاختلاف ليستثمروه في تأجيج الوداد بل تعنّت كلٌّ منهما برأيه وما تنبّها وبذلك غاص حبّهما في النسيان العميق وهجرت قلبيهما الألفة ومات بينهما الحنينُ وعلا الحقد على الحبِّ بسبب العناد وانفصل الزوجان لأتفه الأسباب. والتقتِ الصديقاتُ في إحدى الحدائق تجمعُهم حلقة الألم وحلم الرّحيل عن موطن الأحلام الذي حوّلته أقدارُهنَّ إلى منبع الألم وكذا اختلاف المصالح بين أفراد البيت الواحد حول الوطن أيضاً إلى جهنمَ تستعرُ وكان لا بدَّ للأزهار من الرحيل عوضاً عن الاصطلاء بأوار العنف والغضب وكأنَّ

الحقد كان يُدّخر من قبل الناس لمثل هذه الأيام وإذ ذاك جمعت الفتياتُ أغراضهنَّ تمهيدا للرحيل.

في مكانٍ آخر اجتمع أهل البنات بعدما توثقت العلاقات فيما بينهم بسبب أواصر المحبّةِ التي نشأت بين بناتهم وذلك لبحث مصير الفتيات خاصّة وأنّ البلادَ تتّجهُ صوب المجهولِ وحيث أنَّ البناتَ ما بين مُطلّقةٍ ومُنكسِرةٍ فقد أجمع الحضورُ على ضرورة إيجاد حلٍّ يُخلّصهنَ مما هنَ فيه من اللوعة والأسى.

قال أبو سحر: صديقي لديه مدرسةٌ خاصةٌ ما رأيكم لو يعملنَ بها فينسين بذلك مرارة الأيامِ وخيباتِها.

وقالت أمُّ ليلى: وصديقتي أيضاً لديها محلّ – كوافير – لو اشتغلْنَ به البنات لسرى إليهنَّ نسيان ولعاد نيسانُ لزيارتهنَّ ومَن يدري قد يتجدّدُ النصيبُ مع آخرين.

وقالتْ أمُّ نجمةٍ العجوزُ والألمُ يقضمُ كبدَها على فتاتِها: قد ينسى الناسُ أنَّ بناتِكم هُجرتْ أو طُلِّقت لكن مَن ينسى ابنتي التي سُلِبَت بجرائمِ أحد المتعلّمين، أما تعلمون أنّ كلامَ الناسِ وتعليقاتِهم تقتلُ أكثر من أيِّ سلاحٍ آخرَ وها أنا أرزحُ تحت

أنّات العذاب وتجتاحني بين آنٍ وآنٍ المآسي، أتناول الخبزَ المرَّ والطعامَ السقيمَ، أحسبُ الماءَ سمّاً زعافاً، وكذا الهواءُ أحسبُه أحادي الكربون ذاك الذي يقتل بصمتٍ وبرودٍ فأنا أجربُ الموتَ كلَّ يومٍ وكلَّ ساعةٍ وكلَّ حينٍ.

وسالت من عيونِها دمعاتٌ حارّاتٌ تحكي ما تعانيه من حزن عميقٍ، وتعاطفَ معها الجميع وحجّت إليهم ذكريات بناتهم المرّة بعدما كانت أحلاماً حلوةً يلفّها الفرح ويغشاها السرور.

وتنهّدت أمُّ ميساءَ – كإشارةٍ أنِ اصغوا إليَّ جميعكم – وقالت : إنّ المآسي التي لفّت أحلامَ بناتنا لها حلٌّ وحيدٌ، فالدنيا ما أمهلت بناتنا بل أتت عليهنّ بالمصائبِ إثرَ المصائبِ وها هنَّ يعشنَ في حياةٍ ملؤُها الأسى والبؤس بعدما نالُوا أشنعَ الجور ولأجلِ أن نجعلَهُنَّ قويّات راسخات بالأمل لا بدَّ لنا وأن نتخلَّى عنهنّ لبعض الوقت ليتعرفْن على الدنيا وبهرجاتها الكاذبة وذلك بالسفر، إنّ نظرة المجتمع السائدة – الذكوري - لبناتنا لن تعدو أن تكون كنظرة لملهاة مجانية أو مائدة مفتوحة من اللذّة والمتعة يطيب له الولوج إليها أنّى شاء وأيضاً لا يؤمن أنّ المرأة هي نصف المجتمعِ ومثل ذلك داءاتٍ بالفكر كثير، وبطبيعة الحال لن تأمن على بنات يعشنَ

بمفردهنَّ في جوٍّ من الذكورة المستفحلة فالمجتمع الغربيّ متحرِّرٌ من هذه الأمراض.

وحينما أنهت كلامها بدت على وجوه الحاضرين الدهشة سوى أنّ القبولَ هو الآخرُ لاح في سماء عيونهم فالبنات جرّبن الأسى وسيحاولْن ما استطعْن أن يتجنّبْنَهُ وبذات الوقت هو دافع للنجاح وتخطّي عتبة الألم والندم في آن.

وعادتِ البنات إلى بيوتهِنَّ فاستقبلهنّ أهلهنّ بودٍّ غير معتادٍ وعظيمِ حبٍّ ممّا زرع الشكّ في نفوس الفتيات عن سرِّ ذلك الحبِّ المفاجئ وبدأ يكبرُ الحبُّ الذي ينضوي تحته ألم الفراق وعذاب الابتعاد لدى الأهل والتساؤل الذي يكتنفه الغموضُ والحيرةُ الممزوجةُ بالحيرة لدى الفتيات إلى أن أشرقت عليهنَّ الشمس الأخيرة في بلدهِنَّ، فتيقنت البنات من ذلك حين أُخبرت إحداهنّ من قبل أهل صديقتِها بالسفر واجتمعت الأنباء التي تؤكّد سفرَ البنات، تلك النية المضمرةُ لديهنّ، فألقين أجسادهنَّ في طائرةٍ نقلتْ آلامهنَّ إلى مستنقع النسيان وأجسادهنّ إلى بلادِ الغربِ – ألمانيا.

عبر طبقات السحب والسماء تراقصت صور الماضي القريب البهيّ في عيونهنّ حينما كانت الطرق المؤدّية إلى المدرسة مزروعة بالشبّانِ ونظراتهم وتعليقاتهم، منهم من يبادلهنّ النظرات فقط، ومنهم من يضيف للنظرات بعض كلمات الإطراء وقليلٌ ما هم، ومنهم من يلصق بمفردات الإطراء كذبه ونفاقه ليحظى بلسمة يدٍ أو بسمةِ ثغرٍ تنتهي بصداقة لا تُحمَدُ عقباها بين اليافِعَين، سوى أن أكثر الشبان كان يضيف لنظراته رفثه وكأنه بذلك يعبر عن رجولته المستجدة ولا يعلم أن ذلك يمقتنه البنات، جُلَّ البنات.

منكسراتٍ خائباتٍ وصلتِ البناتُ إلى مطار برلين حيث نما في صدورهن شعورٌ أنَّ أهلهنَّ قد تخلّوا عنهنَّ وإلا لما تخلّصوا منهنّ بهذه الطريقةِ التي ظاهرها الرحمةُ وباطنها العذابُ، خرجْن من المطار وعلى رؤوسهنَّ الطير لا يدرينَ بأيّ دربٍ يولينَ وجوههنّ، وعلى قارعة الطريق وجوهٌ غير الوجوه، نساءٌ غير النساء، أطفال ليسوا كالأطفال، قسماتٌ جديدةٌ في العيون ما عرفْنَها سابقاً، حتى بدا لهنّ أنَّ السماء غير السماء، كلّ شيءٍ مختلفٌ عمّا ألفوه خلال العشرين سنةً التي عشنَها سابقاً.

واستقلْن سيارةَ أجرةٍ إلى فندقٍ قريبٍ ليزحْنَ عن أنفسهِنَّ وعثاء الأيامِ وغبارها واستلمَت ميساء أمور تسييرِ الحياة كونها تجيدُ الانكليزية بطلاقةٍ وقامت بحجزِ غرفتين مزدوجتين لها ولصديقاتها وتمضي الأيام بطيئات وازدادَ الأسبوع أسابيعاً أخرى ويتلاشى المالُ الذي يملكْنَه كما ويزيد الضجر في نفوسِهنَّ.

ذات أصيلٍ خرجتِ البناتُ في نزهةٍ حول الفندق ليتعرفْنَ على كلّ هذه الأشياءِ الجديدة من وجوه وأماكنَ وطبائعَ وذلك لهتك ستارِ الخوفِ عندهنَّ – أكثر الناس تخشى الجديد – ونزعِ الغموضِ حول محيطهنَّ الخارجي الجديد، وحالما خطونَ خارجَ بهوِ الفندقِ حتّى تتبّعهم أحد الأشخاصِ، الغريب يُعرف من عيونه الحائرة، وراح يتبع خطاهنّ، بحذرٍ خبيثٍ، رغم عظيمِ الألمِ الذي مرَّت به البناتُ إلّا أنَّ الودادَ كانَ يغشى حركاتهنّ وسكناتهنّ والتفاتاتهنّ وبسماتهنّ وتنهيداتهنّ فهنَّ لحقّ النديمات ونِعم الخليلات وأخلص الصفيات وأوفى الصديقات، في إحدى الرمقات التي يوزعْنها في النزهة تنبّهت نجمة إلى شبحِ شخصٍ يتبعهنَّ بحيطةٍ مبالغٍ بها وذلك ممَّا زرعَ الرعبَ في ذواتهنَّ المنهكةِ أساساً

من الماضي الأليمِ والحاضرِ الجديدِ والمستقبل الغامض، وعُدنَ إلى الفندقِ حينما كانت تلملم الشمس ضفائرها الذهبية.

وتناولْنَ عشاءً سريعاً وجعلْن يتهامسْنَ بينهن وأجمعن فيما بينهنَّ على سبرِ أغوارِ ذاك الشبح الذي تعقّبهنّ حين النزهة، قبيل النوم مشاعرٌ غريبةٌ بدأت تسري في أجساد البنات فأهملْنها ولم يلقينَ لها بالاً ورمينَها في عتمات الإهمال سوى أنَّ هذه المشاعرَ بدأت تسمو وتنمو مع الأيام، إنّها نسائمُ الشبق التي اضطرْرنَ للتّحايلِ عليها بالمداعبةِ حيناً وبالقُبل والعبث حيناً آخر.

في مقهى الفندقِ ضمّت إحدى الطاولاتِ الفتيات مع الشاب الغامض، بنفسٍ يفوح منه الإغراء والإغواء، وما لبث أن عرض عليهن العمل مقابل أجرٍ مادّي عالٍ ولا يلزم هذا العمل أيّ خبرة ولكنه محدد المدة، وبحسب العرض فإنّ الوارد المادي من خلال الستة أشهر – مدة عقد العمل – كافية لتأمين حياة مستقرة مادية حتى أمدٍ غير قريب.

بائعاتٍ للهوى مشترياتٍ للألم يلجهنّ الرجالُ والموت في آنٍ واحدٍ ينزفْنَ الفرحَ ويتجرّعْنَ المرارةَ غصّات وغصّات، أرواحٌ عجائز في أجساد فتيات بيضاء بضّة لذّة للغائرين في دياجى المجون، منهكةٌ منهن العيون، يتّكئ الرمشُ على الرمشِ والأهداب تقطر دماً قانياً وهاتيك أفئدة ثكلى يلوكُها الألمُ وتعصرها حسرة ويقضم أفئدتَها البؤسُ، وشظايا أحلامٍ منكسرةٍ مدبّبةٍ متناثرةٍ في اللا مكان إلا في رؤوسهنّ فتجرحُ العيونَ وتسيلُ الروح حرّةً حُرّةً من عصف التيه وتعودُ للأجساد ليستمرَّ انكسارها وتراكم جبال الأسى فيها، فإذ بالقلوب مسجّاة والأجساد ملهاة غُصْن في العمر وغاب عنهن ما هو آت فالحياةُ حيٌّ آت والمماتُ ألمٌ مات.

تمرُّ الليالي عابقاتٍ بالحزن، سحاب من غير مُزن، ما أحلى الحزن الدفين - في صدورهنّ - إزاء هذا العمل المهين، وأسرار الجمال البيّنة في أجسادهن بدأت تُفضح وتذهب هباءً إثرَ هباءٍ وكذا آيات الحُسن التي غدت سلعة تُستهلك حيناً وتُرمى تترى.

والقلوب المتكسّرةُ تستهلُّ نهارَها بالتصدّعِ وما بعد التصدّعِ إلا الانهيار، ذات غروب ناجتِ القلوبُ العذابُ: تملّكتَ عقلنا

وطرفنا ومسمعنا وروحنا وأحشاءَنا بأجمعِ، وتيّهتنا في سقيم بؤسك وما درينا في بحر الشقاء أين موضعنا، وأوصيتنا لا نبوح بسرّك فباح بما نخفي سيل دمائنا، ولمّا فَني صبرنا وقلَّ تجلُّدنا وفارقنا رقادنا وحُرِمنا الاضّجاع، أتينا لقاضي العذاب فقال: أنتم للعذاب مُدّعون فقلنا: هو الهناء جفانا، وعندنا في الشقاء والكُرب شهداء يزكون دعوانا إذا كنّا ندّعي، سهادُنا ووجدنا واكتئابنا وشوقنا وسقمنا واصفرارنا ودمعاتنا ومن عجبنا أن نحُنّ للهناء ونسأل شوقاً له وهو هاجر أرواحنا ومقيمٌ في ذكرياتنا، تبكيه أوردتنا وهو في سوادها ونشكو النوى وطيب العيش الذي كان بين أضلعنا، فإن طالبتنا بحقوق امتلاكك فإنّا فقراءُ لا علينا ولا معنا إلاك، وإن سجنتنا في سجونك دخلنا عليك بالدهور التي قضيتها فينا، فلنا في الأتراح مواقع ونحن للارتياع مراجع وللارتياع صوامع وللشجن جوامع وها نحنُ نملأُ الكونَ بالألمِ طرباً.

فارغات من كل شيءٍ تركْنَ العمل سوى الاتّراع من كؤوسِ المرارةِ والخيباتِ والبؤسِ حينئذٍ نضيد، متراكب متّصلة سلاسلُه لا يحلّها نسمةُ فجرٍ أو لمحةُ أملٍ، انتهى عقد العملِ

وهنّ واهناتٌ وقد غدتْ لهنَّ الحياةُ محضَ مجونٍ وفيضَ جنونٍ، وفيما مضى سعى لهنَّ الغويُّ المبينُ في جنسيات لتسهيلِ عملهن وقد تأكَّدَ من استمرارِهنَّ في العمل جرّاء الوافرِ المادّي – هكذا حدّثته نفسه – وما فتئ يقنع الفتيات في الاستمرار إلا أنّه جُوبه بالرفضِ القاطعِ وهكذا انتهت المرارة.

بقدرٍ متوسّطٍ من المال ابتاعت البناتُ منزلاً ذا موقعٍ مميّزٍ وقريبٍ من أماكن تجمُّعِ اللاجئين السوريين، حيث أنَّ الحنين ذات ليلة عصف بأفئدتهنَّ ودارت حولهن ذكريات أيّامِ الدراسةِ وتفاصيلها وطاب لنجمة اغتصابها من غالب ولسحر تعالي صباح عليها وكذا لميساء تعنت حازم وشدته وأيضاً لليلى صدود جهاد وتمنّعه عنها، حين عظيم الألم يطيب قليله، هكذا باحت القلوب المنهكة ذات غسق.

مضت ثلاثةُ أيام رتيبات مكلّلاتٍ بالأسى ثم فوجئتِ البناتُ بصباحِ اليوم الرابع بالشرطة تقرع باب الشقة برفقة صاحب البيت فالأخير قام بتزوير عقد البيع ليحوله إلى عقد إيجار وقد انطلت حيلته وحيث أنّ البنات منكسراتٍ استوطن فيهن الضعف والوهن فقد آثرنَ إخلاء الشّقة والتوجّه إلى أماكن

تجمّع اللاجئين لترمّمَ الأيام ذواتهنَّ وأرواحهنَّ المنتشرة شظاياها وقطعها المنتشرة في قيعان البؤس.

– 4 -

في حديقةٍ مزهرةٍ حلَّ – كما كانت حدائق بلاده بالأمسِ القريبِ، غنّاء – خالد وأنزل من على كتفه جبالَ البؤسِ والتّعب التي نالها من سفره الطويل ومن شديد التجهّم الذي لقيه في الوجوه عبر طريقه ويكأنّه السبب فيما حصل لبلاده.

أسدلَ جفنَيه على أحلام بضّةٍ بمستقبلٍ بهيّ يؤسّسه سعيه وقلبه الخيّر لكلّ الناسِ على حد سواء، يرتشفُ الحلاوةَ في ترانيمِ الصباحِ وينشدُ الفرحَ في طيّات الأملِ المنبعثِ من فؤادِهِ، تلتقيه الأماني فرحةً فارهةً يلازمها سرورٌ مهيبٌ فللنجاح بعد السعي أثرٌ مختلفٌ يقع في النفس، وقد انتابه هذا الشعورُ من ثقته العظيمة بنفسه التي مهما علت لن ترقى للغرور فهو خبيرٌ بخلجات النفس وعبثها ورغم ذلك كان يتحكَّم فيها بكلِّ اقتدارٍ، أحسَّ بذلك قبل البدءِ بأيِّ عملٍ فإذا بفؤادِه يطربُ ويطيبُ له الابتهاج وركنَ خلفَه ماضٍ بهيجٍ أليمٍ.

حينما سرتِ الراحةُ في جسده أراد استكشافَ المدينة الجديدة – برلين – حيث الجدار الذي أقامه غرباء البلدِ – وحيث

الحضارة الجرمانية العريقةُ التي ما سئِمت تلوّح بشذاها بين الأبنية التي تتألّق حداثةً هي الأخرى.

إنّ برلين تتميّز بعددٍ كبيرٍ من المنشآت الثقافيةِ، والذي يتمتّعُ العديد منها بشهرة واسعةٍ في أرجاء العالم، فالحيوية والتنوّع اللّذان تتمتّعُ بهما هذه الحاضرة قاد إلى مكانةٍ دائمةِ التطوّر والتميّز بين المدن الرئيسية الأخرى و المشهد الفنيُّ في المدينة خيرُ دليلٍ على ذلك، فبرلين موطنٌ لأكثر صالات العرضِ روعةً؛ وهذا جعل الكثيرين من الألمانيين الشباب والفنانين العالميين يختارون برلين مكاناً ليستقروا فيه على نحوٍ دائمٍ، وبرزت برلين في أوروبا كمركزٍ للشبابِ والثقافاتِ الرائجةِ في شتّى بقاعِ العالمِ فيمكنُ أن ترى في الشارع الواحدِ تقاليد شرق أوسطية وتقاليد أمريكية وتقاليد صينية.

برلين المدينة الثقافية تتحدّثُ عن وجهها الآخر وهو الترفيه. حيث يمكنُ استكشاف برلين باستخدام الدراجاتِ الهوائيةِ المتوفّرة في أنحائها والتجوّل بها في الأسواق والحدائق والطّرقات. توفّر المدينة الدراجات المدنية والدراجات الرياضية والقوارب المائية من الساعة العاشرة صباحاً إلى العاشرةِ مساءً. وإذا كنت من هواة السير على

الأقدام ستتيحُ برلين لك الفرصة للتعرّفِ على تاريخ المدينة وهناك جولات السيارات للتعرّف على شوارع المدينة وللتعرّف على السياح الآخرين. ولكن جولات السير تتيح لك الفرصة للتعرّف على الكثير من المعالم التاريخية التي تجتمع في مناطق صغيرة. ومَن يرغب بالجولات الخاصّة يوجد الكثيرُ من الاختيارات وتستطيع أيضاً أن تحلّقَ في سماء برلين بارتفاع 150 متر عن سطح الأرض لرؤية المدينة بأكملها والتقاط الصور من البالونات الهوائية.

وحيث أنَّ خالداً يتوقُ لتنمية فكرِه بمزيد ومزيد من الاطّلاعِ فقد آثرَ أولاً تعلُّم لغة هذا البلدِ لسبرِ أغوارِ هذا الكنزِ الحضاري الذي نزل به فبادرَ إلى التسجيل بأحد المراكز الوطنية لتعليم اللغة الألمانية، وفي الأسابيع الأول لاحَ سنا تفوّقه عن الباقين وما لبثَ أن صار يتحدّث كألمانيين، ونجحت الشمس الشقراءُ بتبديل لون بشرته من السمراء للبيضاء خلال تلك الأيام التي مرّت من عمره في هذا البلد.

كان خالد يقضي معظمَ أوقاتِ فراغهِ في الاستماعِ إلى الأخبارِ خاصة حول بلده الأم وأحداثه وحول أفواج المهاجرين الذين ينزفون من الوطن بأعداد متزايدة كلّ يومٍ

ويتوجّهُ صباحَ كلّ يوم نحو مراكز اللجوء التي كان سكنها في وقت سابق ليتعرّف على الأخبار عن كثبٍ وبلسان من يعيشون في بوتقة اللهب وسعيره وأيضاً يوسّعُ دائرة معارفِه فالاتّصال بالناس والتحدّث معهم يحسّن المدارك لدى الفرد وكذا يزيد الوعي.

في أحد الصباحات فوجئ خالد بأربع زهرات يتألّقن في زهو سوى أنَّ تعب دربِ الحياة طغى على وجوههنَّ ومرّ بآثاره على أجسادهنَّ – هكذا حسب - وكان ذلك بأحد مراكز اللجوء القريبة من مكان إقامته ولمّا علمَ أنّهنَّ بنات بلده هرع إليهنَّ:

- مرحبا
- .....
- عم سلّم عليكن والسلام لله
- حلّ عنا أنت كمان. ردتّ ميساء.

وانزوى خالد على نفسه وبذات الوقت تملكه فضول لمعرفة السرِّ وراء تلك البنات، ومعرفة سبب الردّ العنيف واجتاحت رأسَه عاصفة تساؤلات وتحوّل الفضول إلى إصرار.

في غرفةٍ رتيبةٍ حدّ المقت اجتمعت الفتيات مقسّمات ما بين الألمِ والأملِ منكسراتٍ بين الماضي والمستقبل حيارى من اجتماع سلطانَي الأملِ والوهمِ بالغدِ الأسودِ، وراحت الأيام تلتهمُ أعمارَ البنات فمضت الأسابيع الأولى كرفّة العين أو أسرع مُضياً.

في ملاجئ الغربةِ أناسٌ غرباءُ عن الوطن يجمعُهم الشوق لحاراتٍ ضمّت طفولتهم ولمدارسَ شهِدت مكرهم الأوّلَ فراراً من توبيخِ المعلمةِ أو لمزيد من متعةِ اللعبِ ولذّة الجري خلفَ الفرح وكذا الألم الذي رسم لوحاته الجدارية في جدران القلوب وهاتك أفئدةٌ ظمأى تَنشُدُ رحيلَ الرحيلِ وتعليق الهجر والارتماء في أحضان الأطلال المتبقية ممّا يسمى وطناً والحنين يلوك العيون ودموعه تدُعّ الفرح دعّاً.

وخالد يتقلَّبُ على أكفِّ الفضولِ وفي كثيرٍ من المرّات تجمعه مع البنات نظرات اللامبالاة والرتابة إلى أن أتى أحد الأيام والذي قرّرت فيه إدارة الملجأ تخفيض عدد النزلاء فيه وكان الأولى أن يغادره الأحدث وصولاً وذلك إلى ملجأ آخر مُقام حديثاً، ولمّا كرِهت البنات التنقل وأتعابه الروحية وبعدما عظيم سعي من قبل ميساء للإبقاء عليها وعلى زميلاتها في

ذات الملجأ قوبل طلبها بالرفض مما فتح المجال لخالد ليتدخّل بالأمر ويكون له الفضل في بقائِهنَّ معه وحينما نال المنال قام بدعوة البنات لاحتساء القهوة في حديقة قريبة.

في الليل وخلجاته دارت الأحاديث الجانبية عن النزوح وصعابه والبلد وأوجاعه والشوق وأتعابه والحنين وعواصفه بين خالد والبنات وتتالَت اللقاءاتُ وتوطَّدتْ أواصرُ الصداقةِ بين الأفرادِ الخمسةِ.

لقد وجدن في خالد الصديق المقرّب وابن البلد الودود، ذات نجوى وبكثير من اللامبالاة باحت نجمةُ للقمر بما يخفي ماضيها من جور وحرقة وتسأله سُبُل الكفاية فما عادت تحتمل مزيداً من الأسى المزكّى بالمرارة وبكى فؤادها وعلا صوت نحيبها حتى وصل لخالد فهرع إليها تحمله الشكوك والمخاوفُ.

- خير شو صاير
- ما في شي، بس تذكرت أهلي واشتقتلن كتير.
- ليش أنا ما اشتقت لأهلي، بتصدقي اشتقت لبهادل أبي وقساوته، أبي على قد ما كان قاسي عليّ على قد ما

كان قلبه أبيض ورحيم، حكولي الجيران عالتلفون أنو من بعد ما سافرت أبي صار يبكي علي متل الولد الصغير، تقولي كنتْ فرحه وسعادته، صحي لمّا كان ينصحني كان قلبي يشعل نار الغضب إلا أنّي كنت أحبّه كتير بس لساني الضعيف وارتباكي أمامه كان يمنعني من تعبيري عن حبّي له، وفرّت من خالد دمعة حَرّة.

- طوّل بالك خالد كلنا بالهوى سوا الله يصبرنا.

هذا اللقاءُ كان له أكبر الأثر علاقة الفتيات بخالد، حيث كانت الشعاع الأول لتوطيد الألفةِ والحبِّ حيث لاح سناهُ في عيون خالد – حيث أفلَ شبابه وأزهرت رجولته، فازداد تعقُّلاً فوق عقلانيته – كان في حماقاته عاقلاً – وتيقَّنَ من شناعة فعلِهِ حين غادرَ أهله فراراً.

رَوَتْ نجمة ما حدّثها به خالد لرفيقاتها وأسهبت كثيراً في وصفه ووصف حزنه الدفين وزادت واستفاضت في وصف قسماته التي أغرقها فيضٌ أساه وزرع بذور الودّ والفضول في شخوص الحاضرات وراحت تنمو تلك البذور في النفوس العطشى لاستكشاف تفاصيل خالد ومراحل حياته وكشف المستور بين صفوف أيامه فكلّ فرد مدرسة قائمة بحدّ ذاتها،

في نفس خالد بدأ إحساسٌ يداعب قلبه وقد وجد فيه الملاذ من سقم الغربة وضنكها وتكدَّست في سمائه الأحلامُ بمستقبلٍ يجمعه مع إحدى البنات خاصة نجمة التي لمعتْ وتوحّدتْ مع ضوء القمر في مناجاةٍ رقيقةٍ تفوق كلَّ وصف، وعادت نسائم الشبق لتجدّد زيارتها للبنات لكن في هذه المرة ازدادت إلحاحاً وكأنَّ المجتمع الغربي أزال كلَّ ما هو شرقيٌّ في البنات فالشرق له حياؤه وتقاليده وألفته وجهله والغرب له مدنيته وغربته وعلمه وغرابته وإن كل ما في الشرق من تصوّرات ومعتقدات وفلسفات لا تمتُّ للمجتمع الغربي بصلةٍ إلا فيما ندر وكأنَّ الفارق ملايين من العصور لا آلاف من الكيلو مترات، ما أغربك أيّها الإنسان في مكان تبني حضارة وفي مكانٍ آخر تهدم حضارات، أيّ حضارة تلك التي تقوم على الحضارات الأخرى!

ذات يوم كئيب راود ميساء خاطرٌ غريبٌ وما لبثت أن حدّثت به قريناتها فهتفت بهنّ:

- تعوا يا بنات لقيتلكن حل جهنمي، دبرتلكن عريس غير شكل وأكيد رح نبلش من بعده حياة جديدة ونكب كل الماضي الوسخ ورانا ورح ننساه كلياتنا، نحن خوات

في الحبّ والألم، في الودّ والأسى، جمعتنا الأيام تحت مظلّة المآسي وهلكنا من جور الدني علينا، صار لازم نعيش كم يوم فرح، نرجع أيام المدرسة الحلوة وقت كنّا نثرثر في الصف وكانت المعلمة تقلعنا من الصف وكنا ننزل على الباحة نلعب فيها سوا متل الفراشات، يالله أديش كانت أيام حلوة، وخلينا نكسر قوانين النساء في الشرق ونتخطّاها في رحاب الغرب.

ردّت سحر بفتور: ومين هالشخص اللي رح يقبل بأربع عاهرات في بيته، أنتي نسيانة شو خبصنا هون، ولا عم تعملي حالك مالك خبر بشي، شو عم يصير معك معقول اللي عم تحكيه؟

- لكن معقول اللي صار بالبلد! ومعقول اللي صار فينا! ومعقول اللي عملناه بإيدنا! ومعقول اللي صار معي ومعك ومع نجمة ومع ليلى! وبعد كل هاد ليش لحتى ما نتزوج من خالد كلياتنا لأنّو هالشخص بيستاهلنا شفتي شو عمل مشان نبقى هون، وبعدا هون دني غير دنيتنا بالبلد، بيكفّي نبقى في بيت واحد ونصير أسرة وحدة ونحن بنات يعني بيضل وجود رجال معنا بالبيت إلو أثر

مختلف وهاد رح يكون زوج مو زبون وبعدا على قولة المتل الرجال بالبيت رحمة ولو كان فحمة، أنا شايفة هاد حل منيح لكلياتنا وبعدا شو فيها لو صرنا ضراير.

كلمات ميساء الميساء نثرت كلّ مللٍ ورتابةٍ من حياة البناتِ وفجّرت تياراتُ التساؤلات في نفوسهنَّ حول المستقبل القريب وملامحه المثيرة، كيف ستكون الحياةُ المشتركةُ لهنّ كزوجات، ما موقف خالد من الأمر، لا بدّ أنه سيفضّل واحدة عن الأخريات، هل ستقبل المحاكم في زواج من هذا النوع، قبل كلّ شيء كيف هو ذوق خالد في النساء، هل يحبُّ الطويلات ذوات العيون النجلاء، أم يرغب بالقصيرات ذوات العيون دائرية الشكل، أيحبُّ الصدر البارز والجسد الممتلئ أم يميل إلى النحافة وأهلها وما فتئت التساؤلات تروح وتجيء تارة عواصف تارة زوابع حتى جاء غيث القبول من الجميع، وحتى شعر خالد بأمر غريب يدور بين البنات وأنه صاحب الكلمة العليا في هذا الأمر لكن كيف له أن يستحوذ على هذه المكانة وله تلك العلاقة السطحية والمعرفة البسيطة بهنَّ.

آنَ أوانُ العمل فقد أتمَّ خالدٌ تعليمَه وحاز شهادةً تؤهّله للبدء في الحياة العملية في المجتمع الألماني وما وجد إلا بنات بلده للاحتفاء بالنجاح واتّصل بهنّ عبر الهاتف ليخبرنهنّ عن عزمه ولوازم الاحتفال الشرقي في المجتمع الغربي.

حينما وصل خالد استقبلته العطور المنبعثة من الغرفةِ حيث النساء – بنات البلد – وما إن قرع الباب وفُتح له هالَه ما رأى – حسب نفسه يلج حانة أوروبية عتيقة فيها أجساد النساء معروضة كزجاجاتِ النبيذِ الفاخرِ – وغضَّ بصرَه من فوره ولما عزم الخروج حدّثته ميساء:

- هذا الحفل مُقام للاحتفاء بك يا عزيزي.
- أيلزم كلّ هذا العري والتبرج للاحتفاء، أنسيتنّ أنّا شرقيون.
- لستَ بغريب عنّا، قد قرّرنا مكافأتك.
- أيّ مكافأة في تخطي الأخلاق والحدود، أيمكن لي أن أكافئ صديقي بنسمة هيروين، هذي الأمور مرفوضة في مجتمعنا ونحن أبناؤه حتى لو انتقلنا للعيش في مجتمعٍ آخر.

- دعْ عنك الأعراف وتمتّع بالحرية المطلقة، فضلاً عن أنّا وجدنا وجهاً شرعياً لما نفعل.
- كيف؟
- الزواج!
- الزواج، أيُ خبل هذا الذي تتحدّثين عنه، هل ترين أن الوضع مناسب لأقترن بأربع نساء، لا أنكر أنكنّ جميلات، لكنّ الزواجَ أمرٌ ثقيلٌ عليّ ولمّا أتهيأ بعد لهذه المسؤولية العظيمة، الزواج عندي لبنة أولى لإنشاء مجتمعٍ أكون به المؤسّسَ الأوّلَ والأوحدَ وأيضاً كيف تطيبُ لي الحياة في صحبة نسوة لا أعرف عنهنّ أيّ شيء وأنتنّ على علم بمدى شناعة الكلمات التي طالت من هنّ بمكانكنَّ، صحيحٌ أنَّ الألمَ يكوي منكنّ القلوب سوى أني لا أحتمل أن يُقالَ – حتى في المجتمع الغربي – أنّي متزوّج من نساء ماضيهنّ مُبهم، أنا رجلٌ شرقيٌّ في مجتمعٍ غربيٍّ، ذلك الأمر لا يناسبُني البتّةَ، رجاءً أعرضنَ عن هذا وإلّا....
- ما أقساكم أيّها الرجالُ، تتشدّقون بالحريات وهي منكم براء، تتصنّعون التحضُّر وعقولكم متحجّرة، تترفّعون

عن الإفكِ وأنتم في كلّ كلمة تكذبون، تهرطقون، تُسيِّرون الدين والعلم والأعراف والتقاليد خدمة لآرائِكم، تحسبون ذلك هيّناً وهو عندنا عظيم! لو أنّك كنتَ المبادرَ لقبّلتَ الأيادي والجدران وملأتِ الأرجاء توسّلات وتنهّدات، وجعلت من نفسك العاشق العتيد ونحن العشيقاتُ الصلفُ، يا خالدُ ارمِ عنك أغلال الشرق وفكّر بعقلانيةٍ.

وانصرف خالد عن النسوة متأرجح العقل والخطى، يجرّ قناعاته ومعتقداته، لم يدرجْ في مخطّطاته المستقبلية هذا الطارئ الذي قلب كل الحدود وأطاح بكلّ التصوّرات، يعزّي فؤاده بنجاح كان له طعم المرارة، يواسي نظرياته الجريحة، يؤجّج القلم والقريحة ليكتب عمّا حصل له في غربة الغربة ـ غربة العقول، اقترفه خاطر: كنتُ أرومُ نجمة فإذ بنوبة جنون طويلة الأمد تجتاح عقول البنات، وإلّا لما أوكلن إلى تلك الميساء بأفكارها الماجنة، لا بدّ لي من احتواء هذه النوبة، لا بد لها من زوال.

ولجَ غرفته فوجد فيها لمسة أناقة ما اعتادها، ألفى نفسه في مكان يحدّثه عن لمسات الأنثى وآثار ترتيبها، ترتيب الإناث

يفوق كلَّ تراتيبِ الرجال، الملابس مكوية، الأرضية ملمّعة، المنضدة تبرق من شدة نظافتها، الجدران ناصعة البياض، والثلاجة ممتلئة بأشهى المأكولات الشرقية – النساء العربيات يضعن الحبّ في أطباق الطعام، وذهب عن خالد كلّ الاحتقان وما شعر إلا ويده تتناول الأطباق لتتزين بها طاولة الطعام، وحين شعرَ بالتخمةِ من كثرة ما أكل تنبّه لكلام ميساء وعاد يقلّب الأمر من كافة الاتّجاهات والجوانب، وأزهر السهر في عيون خالد وما وصله النوم حتى طلُع عليه الفجر منهكاً متقلّباً في وجوه الحيرة، تسوقه التكهُّنات حيث الغموض والسراب حول ذاك المستقبل الذي هو أشبه بالانتحار في سبيل الجنون وللجنون لمساته الواضحة في كلّ مفاصل حياة المرء وحتّى في تفاصيل أيامه، وما أكثر المهووسين بالغضب.

في حديقة ما في برلين اجتمع خالد ليخبرَ البنات عن قراره النهائي فما وجد فرصة سانحة فالبنات حالما جلس بادرت سحر لتروي مأساتها مع ذلك الصباحِ وكيف أنّه تجبّر عليها وما علم أنَّه من ذكر وأنثى وما للصباح شروق لولا السحرُ، وكذا ليلى التي جاهدَ جهاد ليقيمَ نفسه في العذاب وفي

الحرمان ويسقي فؤاده مرارة العيش وفقر العواطف – لا تغتني العواطف إلا بالنساء – وتلك ميساء تروي سيرتها العصامية وكيف أنّها نجحت بميس الكلمات بردّ الظلم عن الناس وكسب قلوبهم وكذا قلب فؤاد الحازم الذي ما عرف قيمة الرقص على أوتار الحياة، جهل أنه يتمايل في أوتار الحياة ميسا تارة وترنّما تارات أخرى، وأيضاً في أوج حزمه يتراقصُ، وهاتك نجمة تقصُّ كيف ركن إليها الأسى وهي في عمر الزهور واجتاحت أعاصير البؤس روابيها وذاك المقيت غالب بدا أنّه مغلوبٌ والغلبة بدت في غريزته لا في عقله ولجم الطيش نور هدايته وهوى في سُحْق الغانيات بعدما كان بيرق علم وخالد بهنّ الرؤوف الرحيم ولهنّ الناصح الأمين.

غصّ المجمع – الكامب – بعديد الحضور من الناس المتفرّجين والمتذوّقين للفرح، وقدِم أناسٌ آخرون للمشاركة في الاحتفال البهي فالعريس على قدر عال من الخُلُق والدماثة وله سيرة حسنة في الجوار وأقيم احتفال يليق بعظيم الألم الذي مرّ على قلبِ خالد وشدّة الاغترابِ التي

سكنتْ في أفئدة البنات، ونبع من سرور خالد حنينٍ دافقٍ، وأمسَتِ النسوةُ شريكاتٍ في الزوج حتى حين.

– 5 -

حلب هادئة نوعا ما، رازحة تحت آثار الحرب، وبعض التذمرات والأفأفات من قبل الأهالي ـ هذا ما وجده خالد حين العودة ـ بسبب قطع الماء والكهرباء عن المدينة لأكثر من شهرين؛ إضافة إلى ارتفاع الأسعار بشكل جنوني – من الأهالي أيضًا من هو محتسب لمصائبه عند الله تعالى وفي المدينة أيضا بعض الأحياء المهدمة بسبب الأعمال القتالية وما أكثر ما تخربت الذكريات مع المنازل وبدا أكثر الناس كما لو أنهم أجساد خاوية من الأرواح والأحلام تحيى لتأكل وتستيقظ لتنام وحدّث خالد نفسه:

لو كانوا سيغضبون لغضِبوا منذ البداية، لكنّ ذواتهم فقدت لذة الغضب والثورة، وغدَوا كأنّهم قطيع من الأغنام الوديعة التي لا تُشرع قرونها إلا على أنفسها، فيقتلون بعضهم البعض، ويثورون على بعضهم البعض دون أن ينبسوا ببنت شفة تجاه الأخطاء الفظيعة أو تجاه رجالات الحرب، لاح التواكل في أعين الناس وما علموا أنّ ما حل بهم ليس سوى نتيجة لتفريطهم في القِيم وخوفهم من الشرطة أكثر من خوفهم من محكمة الضمير، وازداد الغيُّ

والضلال بين النفوس وعتت ريح الظلم في المكان، وبرغم ذلك إلا أن الحياة أبت إلا وأن تمضي إليهم، فهم لها أهل وهم للإرادة معيناً ذاخراً لا ينضب ونبعاً دافقاً لا تموت فيضاناته وأيقظوا العزيمة من أحضان اليأس وادّخروا جهدا ليدوّن التاريخ قوماً حلّ بهم الموت فأحلُّوا به الحياة بل وعاد وليداً يحبو وانفتح فيهم شغف الحياة، واستثمر تجّار الحربِ الواقعَ على أكمل وجه فارتفعت أسعارُ القبور وفقدت أدوات تغسيل الميت وتحضيره لملاقاة ربّه ممّا دفع أكثر الناس لدفن أمواتهم في الحدائق وفي منصفّات الطرق، آهٍ لو دفنوا مع موتاهم آلامهم، وإذ ذاك تعرّضت حلب لحصار أتلِف فيها النشاط وخبت على إثره العزائم وأفل نجم الحياة إلا قليلاً من شعاع ما ركنَ لهيبة الموتِ واستشاط نوراً ليبدِّدَ سحب الموت وملائكته.

في حلب تقاتل الموت والحياة فإنّك ترى الموت يعمُّ في منزل وتسود الحياة في منزل آخرَ من البناء نفسه ولا تقدر أن تصمَّ الآذان عن صرخات الموت وصيحات الحياةِ والأناس دون ذلك يرزحون ويتيهون سُكراً بغير سُكرٍ من هول المعارك الطاحنة وأكثر ما تأذّى في نفوس المجتمع نتيجة

الحرب هو الرادع الأخلاقي، تكرّر الأمر كثيراً تسقط القذائف فيهبُّ الناس لسرقة الضحايا، هم بذلك يدعمون الحياة والحرام على حساب الموت والحلال، وانتشر مفهوم " دعني أحيا اليوم كما أريد، يوم غدٍ قد ألتقي بقذيفة أو رصاصة أختم بها عمري ".

ومرّت الأيام وأهالي المدينة يصطرخون في حياتهم اليومية من حصار وغلاء وشحٍّ في الماء والكهرباء؛ ذلك أنّ الآبار التي حُفرت ما عادت تلبّي احتياجات الأهالي، واستعاض الناسُ عن اللحوم بالبقوليات، فبدل أن تُنصب حفلات الشواء كل يوم جمعة صار الفول المسلوق هو الطبق الرئيس لعديد الأيام، في أكثر بيوت المدينة راحت تُفكّر بعض العقول في اللجوء إلى الدول المجاورة التي عادت لتفتح أبوابها مجدّداً، وذلك عن طريق بعض الممرات الإنسانية التي ما تنبَّه لها رجال الموت سوى أنّ اللجوء له تَطلّبَ بعض الإجراءات الروتينية طويلة الأمد وكم فقد الناس أروحهم في لجة انتظار قبولهم في دول المنفى.

وحينما رأى خالد ما الذي نزل بمدينته من سقم وضرر وتلف في النفوس وضياع في الأخلاق وشرود لأصحاب

العقول ودهشة للحكماء وصمت للجبناء وسحق للفقراء وقتل للأبناء و ما تعجز التعابير عن وصفه، وساهم المغفّلون من المثقّفين في اتّساع هوّة الشقاق والخلاف فقد زعموا أنّ عراقة المدينة محض افتراء وأنّ انتصاراتِها مجازرٌ تندى لها الجباه وأنّ رموزها امتهنوا الكذبَ والرياء، لأجل ذلك قرّر الالتحاق بصفوف الجيش الوطني رغبةً منه بإزالة الرجس عن بلده، وكم كان صراخ الوطن مدوٍّ إلا أنَ أبناءَه ما سمعوه، كلٌّ منهم منهمك بالسرقات ومنهك من الأموال التي سلبته براءته وأمسى من يحمي الوطن يسرقه على غفلة من الناس، ومنهم من خلع ثوب الحياء فسرق نهاراً جهاراً على أعين الناس تحت سطوة السلاح وبشعار " أنا من يؤمّن لكم الحماية "

أيُّ حماية تؤمِّنها أيُّها الأحمق؟

ودخل خالد السلك العسكري مترعاً بالعزم ممتلئاً بالإرادة، تصميمه على دحر الفساد تخرُّ دونه الجبال هدّاً، وفي أيامٍ قلائلَ تمكّن من التعلُّم على استخدام البندقية ودخل في أتون الاشتباكات وفي دياجي المعارك أمضى سنيّ عمره قضاها في الكدّ والتعب وما فتر عزمه وما تلاشت قواه

ويكأنّ فؤاده أضحى مصدر طاقة متجدّد يبثّ في أركان جسده القوّة والنشاط وينشر في عضلاته مزيداً ومزيداً من الثبات ويمنح أقدامه رسوخاً ما بعده رسوخ، يقضي نهاره في نوبات حرس وليله في اشتباكات متواترة.

على حين سهوٍ اجتمع الشرُّ وأهله وأعدّوا عدّة عظيمةً وجهّزوا جحافل جرّارة مهيبة تشيب لها الوِلدان وتشخص لها الأبصار وتزيغ عن كثرتها العيون، ويكأنّ هاتيك الجيوش اجتمعت من جميع أصقاع الشرق ومن كافة نواحي الغرب ومن كلّ جهات الجنوب ومن عموم مناطق الشمال واعتقد من اعتقد أنّ شرور الشياطين والجنّ قد خرجت من تحت الأرض نصرة لمن ينصرها ومساندةً لمن يخدمها كيف لا وقد جعلوا السواد لوناً لشموسهم وأقمارهم وكلّلوا بالقتامة أيامهم وتوّجوا بالظلام أحلامهم وعمّدوا بالعتمة آمالهم, وزحف أهل اللون الأسود إلى مناطق السلام ولاحت في الأرجاء ملامح معركة ملحمية لا ريبَ وأنّ التاريخ سيذكرها في كثير من أيامه.

في غمرة الغرق في ملذّات الطمع تاه أفراد اللون الأبيض – أو مُدّعوه الأمر سيان – دنا أكثر فأكثر الظلم وعتا

عتواً كبيراً واستحوذ على قسم كبير من المدينة وأفسد وأهلك الفكر وبثَّ السموم في رؤوس الأطفال لينشؤوا خدمةً له وكذلك شوّه المعالم الحضارية للمدينة ونزع الكتب من الصدور وراح يشكِّكُ بإيمان الناس ومعتقداتهم وزرع الريبة والذعر وقطع أواصر الألفة السائدة حينئذٍ وجمع الأقوام على الخوف والهلع.

وأضرمت نار الحرب برشقات متبادلة بين الطرفين وما لبث أن تحوّل تبادُل الرصاص إلى تبادُل القذائف وما أكثر الرصاصات الطائشة وكذا القذائف التي كانت تصيب من لا ناقة له ولا جمل وذنبه الأوحد أنّه خرج لكسب قوت يومه فتلقفه الموت في خضم السعي.

خالد في الصف الأول من تشكيله يؤازر رفاقه ووصلهم خبر تقدّم الظلم في الجهة الأخرى من المدينة وعلى جناح السرعة انتقل إلى هناك بصحبة تشكيله وحين وصل إلى منطقة الفرقان – المعروفة في حلب – وجد أنّ الظلم قد ولّى وأن الحشود الموالية لما ينتمي إليه قد تفرقت شيعاً دون رقيب وانتثرت في الأصقاع كالأغنام تسعى، كلٌّ ذهب إلى ما يصبو فؤاده، أفراد ذهبوا إلى مناطق أخرى يرومون اللهو

واللعب وآخرون قد ولّوا وجوههم صوب جهة أخرى وهم يرتعون، كذلك هو حال القادة من تسيّبٍ مقيتٍ وانفلاتٍ مريرٍ وتساهُلٍ بغيضٍ حدّ الإفساد والمجون بلغ أشدّه في نفوس الجميع وحينما رأى خالد ذاك المشهد أيقن مدى الشتات والفُرقة التي وصل إليها أبناء مجتمعه فالعناصر في نهاية الأمر أحد أفراد هذا المجتمع البائس وهاله ما أدرك وأراد الخروج فالغياب أولى له من المشاركة في الإفساد واجتناب الشقاء – إن أمكن - خيرٌ من الإيغال فيه وأيقن حينئذٍ مدى صحة أفكار علي الذي سرق الغياب بهجته وأمسى نديماً للألم بعدما سرقت شظية صوته، وتوجّه إلى مسجد قريب ليلقي في باب الله أثقاله ويرمي عنه مآسيه ففي القلب منه حرقات وغصات لا حصرَ لها وقد تلفّت منه الروح وأنهك منه الكبد، على جدار الوجع الخالد بقلم الرجاءِ كتب:

ها أنا ذا مترع بالأسى، أغصّ بأوجاعي، أختنق بعبراتي، تغتالني الحسرات كلّ بؤس مرات، مرات ما عدت أستطيع حصرها فنهاري أمسى ليلاً بهيماً وأفراحي غدت مواسمَ شقاء ومسرّاتي أمست بؤر عذاب فلا الفرح يزورُني ولا النسيان يحلُّ بذاتي، هل أنسى كيف غادرت وطناً كان

جنة وأضحى بعد حين جهنم تستعر، والسنوات التي قضيتها في غربتي زادتني لهفة لروحي وشوقاً لمنزلي وحنيناً لأهلي وحين عودتي وجدت الروح آفلةً والمنزل أطلالاً مكوّمةً حجراً فوق حجرٍ، والأهل أشلاءُ ما عرفت شلو أمي من شلو أبي كانوا قد مُزِّقوا إرباً إرباً، وتلك البيوت الوادعةُ العامرة بالأحلام والآمال والأمنيات التي ودّعتها وكلّي يقينٌ بأنّي سأعود لأراها كما كانت أو أفضل، فإذ بي أراها متكدّسةً فوق بعضها جرّاء الألم الذي اعتصر قلوب أصحابها، كذا هو بيتُ عمي وأسرته التي كانت وأسرتنا تجمعهما صداقة متينة بين كافة أفراد الأسرتين، فكان لكلِّ فردٍ من أسرتنا نديمٌ في الأسرة الأخرى تستهويه أفكاره ويستحلي رؤاه وتطيب له خواطره، إلا أنَّ أسرة عمي لم تكن بمنأى عن العذاب الواقع، فها هم مشتّتون في الأصقاع كلٌّ منهم يرزح تحت ألم الغربة وعذابها، ولا يرون أنفسهم إلا عبر شاشات صغيرة تبدّد أيّ مشاعرٍ، وما أكثر من هم مثلهم، في بوتقة البؤس يهيمون. أيا ربّاه!! قد مسّني النصب والعذاب وإنّي لأجد الضنك والمرارة في سروري واللون الأسود قد غشي زهوري، واحتلّت السموم بحوري وهُتك حبوري وقتّلت طيوري

وانهدَّت جسوري وتبدَّدَ شعوري وبدا الألمُ جلياً واضحاً من بُثوري.

تمرّ سنابك الأعوام واحداً تلو آخر على وجهي وفيها من الوجع أقساه، أيا قلبي السقيم ما الذي أوجدك؟ وفيما مضى كان قدسُ الأحلام يطير فيّ كلّ حين آلاف الليالي، وكنتُ أستحضر الغيمات لأمطر التفاؤل فوق الأيام المتوالية، كحبات المطر هي، سريعة، متعاقبة، لا أهنأ بقطف جناها حتى تلوذ بي الملمّات، سوى أنّي لا أفتأ أزرع حسن الظن في الأيام وأفترش الساحات بانتظار الزهر وحين يأتي الأوان وأحرث الأحلام البيضاء، وا أسفاه فكم يخيب الظن بالمقبل؟ على أطلال الأيام المنصرمة فقدتُ ساعات فرح، وحطام ماضٍ بهيج لأكسب للدهور القادمة جبال وجع؛ آهٍ عليكِ يا نفسي الوديعة، آهٍ من أسابيعَ وشهورٍ لا تجيد غير التهام أفراحي ومسرّاتي على حدٍّ سواء بما في ذلك ذرات ذاتي، وتمرّ الأيام ويتوالى تلفي، هي السنين تتراقص في باحات عمري دون أن تكلَّ أو تُنهك وكلما ازداد رقصها إجلالاً تناقصت لحظاتي في هذه الحياة متجاهلةً كلّ الأفراح التي عشتها وكافة زهور الأيام التي تنعّمتُ بها وكذلك فسحات

الهناء التي تزينت بها ذات بهجة ناصيتي .
الغريب في الأمر – يا إلهي - أن رقص السنوات يظهر على جسدي فيحلّ البياض في رأسي ويزيح النحول قواي وتتّضح معالم أقدام السنين على ثرى قلبي وتلك العصافير التي كانت تشدو لي أضحت غرباناً سوداً تنعق إيذاناً بقرب الرحيل، يا لَسطوةِ الزمن، ما أشدّها؟

أفي الموت كذلك هو الحال؟

ترقص السنين وأغدو في نهاية المطاف غريباً فوق غربتي وتائهٌ دون تيهي وضائعٌ حول ضياعي وملتاعٌ في جوف لوعتي .
يا أيّها العدّاء السريعُ

يا أيّها السارق - سارق الفرحات .

يا أيها الزمن

-مهلك، مهلك فليَ في الآفاق مسرّاتٌ مغتالةٌ، ما أحلاها، ليالٍ قتيلة ما أزهاها، وأمنيات موؤده ما أبهاها، وما تحقّقت ذات أمل.

لعلك نسيت أيّها الزمن حين غروبك فيّ أنّ هناك آلافاً من الأحلام ستشرق لا محالة، وأيضا زفرات حرّة مُرّة ستلفظها الصدور ودمعات لا حصرَ لها.

يا أيُّها الغروب، يا طعم الرحيل، يا حسرات الأيام القادمة ها قد ازدانت السماء بألوانك واكتست الآفاق بحمرتك، والخريف يتنزّل كلّ عام بملامحك، ويكأنَّ حمرتك القانية هي ذاتها دماءنا ـ المترعة بالألم ـ التي تنبض بالوتين.

يا أيُّها الغروب لعلك نسيت أن من بعدك ليلٌ جميلٌ تتألّقُ به النجمات وتطيب فيه المقامات وتحلو به النغمات وتنجلي في سحره الكُربات وتغنّي فيه البسمات وترقص على ضفافه المسرات فأهلاً بك أيّها الخريف ـ خريف السماء.

وهل أنساك يا قلمي؟

قلمي برفقتك ولجتُ مدنَ الملائكة وسرت في شوارعها ـ أخذني بهاؤها. تراني أهيم من فرط النقاء وعظيم الصفاء، قدماي ما عادت مُلكي حينئذٍ، كمّ تمنّتْ عيناي الخروج من محجريهما لتروح وتنهلُّ من فيض الأنوار وتعُبَّ من روائع الرؤى وإذ بالأحلام تتهادى أمامي منها ما هو عميق كالبحار أو أشدّ عمقاً ومنها ما هو بسيط ورقيق كبيت العنكبوت.

وعجبتُ أكثر العجب حين رأيتُ فئة من الأحلام تترقرق كالجداول وترقى في السماء حتى يبلغ الرقي منتهاه، وانتهيتُ من مدن الأحلام والملائكة إلى الذكريات السود.

بك يا قلمي الأغرّ عشتُ أسود اللحظات يوماً ما ضمّنا الحزن سوياً تحت جناحه، وغشينا من الهمّ ما غشينا وإذا بنا نرزح تحت أسىً كالجبال عظيم تتكسر الآمال على سفوحه وهاتيك أمنيات تسأل بأيِّ ذنبٍ قُتلت وتحوّلت ظلال أشجار البؤس إلى أشباح تريد سرقة روحي مني، فالعذابات حينها كانت تهفو إليَّ من كلّ جانب، فأجانِبُ البِشر وأفرُّ إلى من قبر البؤس إلى لحد الأمل وتتراءى أمامي العذابات والغيابات نجمات تشعُّ لهباً يستعرُّ بها أنين فؤادي فأغدوا في أتون الشقاء، مضرجاً بدموع أمنياتي مضمخاً بدماء أحلامي وأشلائها ملطخاً بالوهن والانكسار.

والآن يا قلمي، يا أيّها الأنا، يا نافذتي على الحياة، لقد توحّدنا سوياً بعدما عشنا الأفراح والأتراح وأصبحنا روحاً لجسدين، يا قلمي وي كأنكَ صرتَ مني، وي كأني صرتُ منك. لا بل أنت مني وأنا منك، وإذ بالفؤاد يقطر دمع اليراع حين تمرّ بالذكرى كيف عزفتُ بالقلم على أوتار الحياة،

وكيف اكتستِ المآسي بالمآسي حين سطرتها وكذا حين اكسبتُ الأمل أملاً والنقاء نقاءً، وفتحت أبوابُ المدائن المؤصدة وأخيراً لوّنتُ الليل برؤاك ورواياتك، وجعلتُ الآفاق قراطيس وسطرتُ بمداد الفؤاد أنقى النصوص وأعجبها وأبدعها...

وأمضى خالد الساعات الطوال في خلوتِه وقطعت خلوته حين ولجَ أحد الأفراد المؤازرة لتشكيله إلى المسجد – سوى أنّه من جنسيةٍ أخرى – واختلط عليهما الأمر وأشكل عليهما التخاطب فحسبا أنّهما أعداء وتبادلا إطلاق الرصاص وأصابا بعضهما وعلى إثر ذلك وفدَ الحاضرون بالقرب إلى مكان انطلاق الرصاصات وقاموا بإسعاف الطرفين، خالد إلى مشفى حكومي يرزح تحت سياطِ الإهمال والآخر إلى مشفى خاص تقف له المشافي هيبة و وقاراً من شدة الاهتمام الذي أولي إياه.

وعادت سياط المجون لتضرب جسد خالد وروحه، أما يكفي أنه ترك نساءَه وأحلامه في سبيل إعادة الكبرياء إلى الوطن، وصدف أنّ رفيقه في الغرفة عمل في ذات المجال وقصَّ على خالد أغرب الأحداث والوقائع التي سبقت قدوم خالد

وأغرب تلك الحكايات هي التي عاشها أحمد بذاته. يقول أحمد لخالد: بينما اشتدّتِ المعارك في أحد المرّات تعرّضتُ لكمينٍ محكمٍ من قبل أعدائنا وحينها كنّا نتلقّى الأوامر والتوجيهات من قائد خبر يحمل ذات الجنسية التي اشتبكتَ معها في المسجد، وأدّى الكمين إلى وقوعنا في الأسر مع ذاك القائد وحين قاموا بأخذنا إلى معسكرهم قاموا بصفّنا فرادى، وأطلقوا علينا الرصاص وتظاهرت بالموت لأحظى بمزيد من الأيام في الحياة، وسمعتهم يقولون بعدما أشاروا إلينا: هؤلاء القتلى لا طائل منهم، أما هذا الأجنبي سنستفيد منه بمبادلة أسرانا لديهم، وحينما انصرفوا زحفتُ فراراً حتى غادرت المعسكر ووصلتُ إلى أماكن سيطرتنا بشقِّ الأنفس.

لقد رخُص ابن البلد – يا صاحبي - وعلت قيمة الغريب، ألِئنَّ أبناء البلد هم كثر وأولئك قلائل؟ ومن سيعمر البلد في نهاية الحرب؟ أليس أبناء البلد وفي ذلك سيبذلون أرواحهم وأجسادهم؟ ألن يسقوا الأرض من عرقهم؟ والمباني من فيض شبابهم؟ ألن يعطّروا الساحات بأتعابهم؟ ألن يكلّلوا

المدارس بجهدهم، ألن يزيّنوا الطرق بأكبادهم، ألن يجمّلوا الحارات بحكاياتهم؟

وغاص خالد في بحر ندم وهتف قلبه: ليتني ما عدت! ليتني ما عدت!

– 6 -

أشرق الصباحُ وتوجّه الناسُ لأعمالهم اليومية ومع تباشير النهار الجديد بدأت اشتباكات متواترة تلوحُ في أطراف حلب والوقت يمرُّ على النفوس ثقيلاً كالجبال، عظيماً، ينثرهم خوف، يبعثرهم وجل، يبدّدهم ذعر وذاك الهلع من القادم يرقص في سماوات العيون، وما لبث أن زادت حدّة الاشتباكات حتى غدت في قلب المدينة تتراقص الرصاصات، وتتساقط القذائف في الأنحاء وتشهق الوجوه مع كلِّ صوتٍ قريبٍ.

المشفى الذي ضمَّ خالد كان شاهداً على قساوة تلك المعارك وخالد كان يلوكه الندم والحسرة والترقّب، إنّها المرة الأولى التي يواكب اشتباكات كهذه، وفجأة هزّ الآفاق والمشفى صوتٌ هائل ارتعدت له أركان المشفى، وقامت أعمدة الدّخان، وفاحت ريح البارودِ، وانتشر الركام، وعمّ الخراب، وانتشر الغبار وأزهر الموت وتطايرت الدماء وسادت بشائر الدمار وأتت الأخبار سريعة من القسم السفلي للمشفى فقد أصيب بقذيفة ضالّة، وقبل وصول الخبر كانت قد تطايرت الأشلاء والشظايا إلى الطابق الأخير وقد سقط بعضها قرب

سرير خالد، وعرض على شاشة التلفاز الذي قاوم الصدمة خبر عاجل مفاده أن تفجيراً محدوداً وقع في قرية نائية دون وقوع إصابات، حينئذ أغمي عليه من فرط الأسى والكذب.

في الغياب ألفى نفسه مع سنواته الزاهرة حين كان طفلاً يرتع بين جنبات الفرح ويزهو في حارات السرور وتتألّق البسمة على شفاهه، تذكّر كم تخاصم مع رفيق صفه من أجل لقمة أو اثنتين اختلسها منه، ومرّ بذكراه كم آذى بتندره وسخريته تلك البنت حينما انفلت حذاؤها من قدمها، وأيضاً تذكّر حنقه الصغير حينما كان يرجع إلى البيت ويجد أهله منشغلون عنه بحكم العدالة – برنامج إذاعي – وقبل ذلك تلك الفرحة الكبرى حين تأخّر في النزول من الحافلة التي تقلّه إلى البيت فعرف أماكن سكن أصحابه في الصف، كم هي حلوة هاتك الذكريات، وامتدّت به الأيام حين تفتّحت له الأحلام بعد أمدٍ وشهوة تحقيقها، ذات مرّة لبس ساعة والده وطلب من أمه أن تزوّجه بحجّة أنّه ارتدى ساعة يد قد كبر، ما أحلى براءة الأطفال، وعاد الفرح ليحلّ بين أيامه لكن هذه المرّة مصحوباً بطيشٍ أرعنَ، لن ينسى تراشق الزجاج بينه وبين أصحابه دون أن يأبه لعظيم الأذى الذي قد يحصل وكذا

تبادل الحجارة أيضاً، سرى إليه امتناعه عن التعرّض للبنات حينما كان في الإعدادية، ما أشدّ ما نعتوه بالتعقيد ووسموه بالهبل ووصفوه بالخبل وعيّروه بالغباء وتندّروا بسذاجته وألّفوا الأقاويل والحكايات حول قناعاته وعقائده التليدة، كلّما زادت التحديات أيام الصِّبا صقلت الشخصية وبانت قوة ملامحها، الصَّبا العتيق لا يغادر الفؤاد بل تبقى جذوره حتى الرحيل، وسربت إليه أيام العمل بتقلّباتها وأحوالها ونهاراتها ولياليها وتفاصيلها وكدّها وسهرها وهمّها وثقلها والمسؤوليات العظام فهل تُنسى؟

من جوف الغياب أتته صورة الفتاة التي رسمتها أحلامه والتي ناله السهد لأجلها، ما أعذب ما سطر من تعابير وكلمات تحلو بها الأوصاف وتنتهي حيالها الألطاف وتتخطّى كلّ الأعراف وحين المقارنة بينها وبين الجمال يقع الإجحاف، الوداد يغشى فؤاده والهوى يحلو قربها، الحبّ يزدهي بعيونها، وازدانت الأوقات بوجودها، نجمات الليالي كانت تتألّق حين تفكيره بها، والأقمار تغنّي أروع الأهازيج وذاك السرور أقام أعراساً والشموس غدت حقولاً صفراء للهناء، كان في

كلّ ليلة وقبل النوم يحسبها تغفو قربه يضمّ صدره إلى صدرها وتلتقي روحه بروحها ووجده بهيامها وغرامه بعشقها ودمه بنجيعها وأحلامه بآمالها وأمانيه بأمنياتها وأفراحه ببهجاتها ويحنو فؤاده على فؤادها وتلتقي الشغاف في أعظم شغف ويتوه الوله حين الوله، يسرد لها أحلامه الطيبة، يحدّثها عن خيباته، عن انكساراته، عن سوء معاملة أقرانه له، عن الماضي البهيج، عن القادم البعيد، عن انتصاراته، عن إخفاقاته، وعن نجاحاته، أغداً ألقاك؟ كان سؤله الأكبر فقد كانت جنّة روحه وقبلة حبّه – حدث ذات مرة أن سحّت مآقيه - دموع الفرح - على الوسادة من فرط الحبّ، الوسادة كانت أكثر شيء يمكن أن يقرّبه إلى تلك الحبيبة التي نسجتها آماله فقد كانت تحظى بلمساته الناعمة وطبطباته الهادئة، في بعض المرات كان يخيّل إليه أنّ نشيج حبيبته قد علا فيربت على كتف الوسادة، هي ذاتها التي شهدت حرارة خفقات قلبه حينما كانت تعصف به الصبابة وللحنين نفحات فكان فؤاده دائم التعرّض لها، ذات مرّة سطر على سحائب الشوق: على

قلبي وضعتُ يداً ونحوكِ قد مددتُ يداً، سرى ليلي بغير هدى وتختزلُ سماواته بحار الأسى، تطوف بي الذاكرة لتعود إلي تباشير حلمي بك حين كان قلبي يرسمك ويمجّد الحبّ لأجلك والعقل مني يدعّه دعّاً بأيام العمل فأبى القدرُ إلّا وأن يضعَني تحت عرش الوداد لأخِرّ ثمِلاً والغرام ينضح من فؤادي، وإذ بي اليوم أهفو إليك وكُلٌّ من قلبي وعقلي وروحي ودمي ينشُدُك – كترانيم مقدسية، ها أنا ذا أناجي ورقتي – مرآة قلبي وملاذي الأخير – وأخطُّ عليها كلمات ليست كالكلمات وأكتب: ومضات وومضات وومضات هي ما لي منكِ، بها من الوله أحلاه ومن الغرام أشهاه يا درّتي العطِرة، أيا جنتي النضرة رحماكِ والظهور، لأكتحل بالحبور، وإذ بي ألفيتُ كلماتي تستحيل سحاباً ثقالاً وتتقارب فيما بينها وتمطر الأمل في فؤادي ويعلو هزيم الرعد، في سنا البرق قرأت عينيّ آيةً فحواها أنّ الحلم الذي تدخل ليجمعني بك على أتون الشوق سابقاً سيعاود الكرّة وأحلم بك على أوار الحنين وحين ألتقيك سأنثر الهيام

في مهبّ الريح وأعود سيرتي الأولى ينزوي العشق منّي خفراً، فكفى للحبّ فخراً أن ضمّ ودادي بجناحيه.

وتمطّى الغياب في رأسه بالمزيد والمزيد حتى انبجست أيام الوحدة، حينما كان خالد يهيم في جوف الليالي الباردة وحيداً شارد الذهن يحرثه الصقيع، يغشاه الاغتراب، ويكلّله السقم والسأم في آنٍ من هذا الحال البائس.

حدث ذات مرة أن فرّ من عزلته صوب الحياة والانفتاح ومشى بدرب زهري فبادلته العيون بسمات باهتة وكأنّ أصحابها علموا بحاله فأرادوا الإمعان، وجلس على أحد المقاعد وتدلّت من فوقه أغصان شجرة عتيقة هرمة تتالت عليها الأعوام ومسّت أوراقها الخشنة وجنتيه فسربت بجسده رياح الاغتراب وبدت له ثيابه أكفاناً تبشّره بالحِمام وتحولّت الظلال الوارفة إلى أشباح تزرع الذعر في فؤاده، وذاك اللون الأبيض وي كأنّه سلك طُرُقاً إلى شعر رأسه. ومرّ أمامه جدٌّ وحفيده تتشابه هيئتهما وهي غير متشابهة كلاهما يغشاهما الوهن، الأول في بداية الدرب والآخر في نهايته جمعتهما الفلسفة والحكمة، الأطفال مشاريع فلاسفة ذلك أنهم ما يعرفون الاعتياد ودائمي التساؤل، وكبار السنّ

لهم ما لهم من الخبرات المكتسبة من تعاقب السنوات عليهم فكلّ فردٍ منهم مدرسةٌ قائمةٌ بحدِّ ذاتها ومنهم من يملأ الأرجاء زعيقاً وصراخاً لأتفه الأسباب في الظاهر والباطن يكون تحسّراً على ما فات من أعمارهم بدون إنجازات تُذكر أوَ ليست الأعمار تقاس بالإنجازات.

ولج النور عينا خالد حين فتحهما مرهقاً جسده، متعبةً سريرته، منهكاً فؤاده من عشقه المتواري، ودماغه يكاد يتشظّى من هول من رأى في غيبوبته ودخل عليه رجال يعرفهم وهم له منكرون، إنّهم من نفس جنسية الرجل الذي تبادل معه إطلاق النار في المسجد، وقد حسبوه ميتاَ فاحتملوه دون أن يلتفتوا إلى موته أو حياته لخارج المشفى بينما كانت المعارك تزداد وتخفت حدّتها بين ساعة وأخرى ووضعوه في سيارة نقل صغيرة – سوزوكي - مع عديد الجثث، منها مبتورة ومنها متفحّمة، ومنها محفور جذعها وتواجدت قطط ميتة أيضاً وما أكثر الدماء والأشلاء، وصدر من أسفل منه تأوهات تدلّ على وجود روح ما معه فأوجس خيفة وسيطر عليه الذعر وامتدّت الحيرة إلى أوصاله السقيمة وازداد إجهاده إجهاداً حينما حاول إزاحة الجثث عن

مصدر الصوت وسحب أول الأمر بعض الأشلاء فاختلطت آلامه بريح الموت وأحسه احتلّ شهيقه وزفيره وامتلأت كرياته بالفراغ بدل الحياة، ومن ثم أماط جسداً مسوداً بصعوبة بالغة حتى وصل لمصدر الصوت فوجد وجهاً عجوزاً بها من الغياب أكثر من الحضور ومن خريف الحياة أكثر من ربيعها، وجد امرأةً أتلفت الأيام محجريها والتهمت المآسي جمالها المنصرم وبدا لو أن عمرها ألف سنةٍ وكذا تلك التجاعيد أبت إلا وأن تظهر في سماء وجهها، وذبلت أزهار صباها. وتابع خالد إزاحة ما بقي من ركام الأجساد عن المرأة المسجاة بوهن من اعتمره أكثر البؤس. وتمالكت العجوز نفسها واقتصدت في أنفاسها وحدّثت:

ـ يا أيها الكريم المجهول قد تكرّمت عليّ بمحاولتك إنقاذي، لستُ أراك ولكن أشعر بك ببصيرتي، يبدو أنّك سُحقت مثلي أيضاً وإلا لما جمعنا هذا المكان المحاط بالفناء، أترى كيف فعل نصف المجتمع بنصفه الآخر بجهلٍ أحمقَ؟ ألا يمكن أن أكون أمَّ أو أخت ذاك الذي رمى بي هنا دون أن يأبه لحياتي أو موتي؟ أيليق بمن ربت أجيالاً وأعدت شعوباً أن تنتهي هذه النهاية؟ يتخذون الجبال والفولاذ أمثلة للقوة والقساوة

أمَا يعلمون أنّ قلوب البشر حين تطغى تصير أكثر صلابةً من الفولاذ وأشد قوةً من الحديد وتفوق قساوتها قساوة الجبال؟ قد غاب عنهم أن القدامى قد قدّسوا المرأة واتّخذوا منها آلهةً عرفاناً بمكانتها وتلك عشتار وفينوس والكثير من الأضرحة الخاصة بالنساء تشهد على ذلك وتخبر عن مكانة المرأة، ألم يحدّث رسول المحبة والسلام محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ أن الجنة تحت أقدام الأمهات؟ وهل تحدّث أحدٌ عن أمٍّ ذكر؟ قد يجهل الذكور آلام مخاض وعسره وعثراته فهي توازي ألم سبعين ضربة سيف في آن واحد، حين الولادة نتجرّع الموت صبابة، تخنقنا العبرات، تمرُّ حيواتنا أمام أعيننا كمرّ السحاب ونحسبها آفلةً ثم ما تلبث أن تعود لنقضي لياليا على السهر والأرق وندعو الحفيظ أن يصونكم، كم من إناث قضين حينذاك، نسهر وتنامون، نتعب وترتاحون، نشقى وتهنؤون، نأسى وتسعدون، نحزن وتمرحون، نشقى وتفرحون، نبلى وتكبرون، نغرب وتشرقون، نفنى وتحيون، نذبل وتزهرون، نزرع وتحصدون، نخاف وتأمنون، نضعف وتقوون، وبعد كل هذا نُرمى كالنواة أو نُتّخذَ سبايا أو بائعات

هوى أو جواري في عصر النهضة باسم القانون والأعراف، أترى كم هم البشر منصفون؟!

وتصبّب وجه خالد أعراق الندم والأسى فقد صدقت العجوز فيما قالت وحمّل نفسه مسؤولية أولئك الضالّين فعفّر وجهه بالغبار المدمى وصفع روحه عديد الصفعات وتعالى صياح قلبه، ما أتعس قومٍ لم يجدوا لهم إلا الظلم سبيلاً، الأفكار في رأس خالد أشرقت حالما انتهى من جلسة التعذيب التي افترضها على نفسه ومن ثم راح يدوّر الأمر في رأسه والعجوز تتقلّب من فرط الألم المضني وما لبث أن تحدّث خالد:

- يا أيّها العطاء اللامتناهي، يا هبة الوهّاب – جلّ وعلا – يا قبلة الحنان والحنايا، لن يُنكر عاقلٌ فضلكنّ على الجنس البشري وإنّ ما تفضلتِ به لَهو غيضٌ من فيض مهما ارتقى، وكذا تعجز الأبجديات عنه وتقف حياله التعابير مشدوهةً، كيف لا ولولاكن لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه من حضارة ونماء وانفتاح وبالرغم مما سبق إلا أنّي لا يمكن أن أتجاهلَ البسوس وهيلين، الأولى افتعلت حرباً دامت عشرَ سنوات ونيف والثانية كرمى لحبّها قامت حربٌ ضروس

امتدّت أعواماً طوال، وتلك امرأةُ لوط ارتكبت أعظمَ الخيانة حينما أخبرت الضالّين عن ضيوفه. ما أودّ قوله أنّ الشرّ شاذّ والخير قاعدة، من جهة أخرى الأشخاص وكاتبوا التاريخ لا يذكرون إلا من كان نبراساً في النبل والعطاء والحبّ والخير والكرم والإيثار والخلق الحسن والصدق أو مَن كان مرجعاً في الوضاعة والبخل والقلى والشرّ والإمساك وحبّ الأنا وشرّ الأخلاق والإفك سواء أكان ذكراً أو أنثى.

واهتزّ مُحرّكُ السيارة وصعد إليها شخصان وانطلقت بعجلٍ تقطع الدروب وتعبر السبل وبعد فترةٍ من السير توقّفت السيارة وترجّل منها الرجلان وأتيا الصندوق الخلفي وأفرغا ما فيه من جثث بما في ذلك خالدٌ المضرّج بالأسى والعجوز المضمخة بالوجع وتساقطت الأجساد تصحبُها أشلاء وفاحت ريح الموت، وجعل الرجلين يلحدان كلّ جثّةٍ ويرمون فوقها التراب دون أن يأبها لحياة صاحبها أو موته وكأنّهما رجلين آليين لا يجيدان إلا تنفيذ الأوامر، ويكأنّهما خليا من مشاعرٍ أو أحاسيسَ وما أشدّ ما ناجتهما المرأة واستجدتهما أن يبقيا عليها ولا يئدانها واحتملا خالد وحياته وأساه ودسّوه في قبرٍ وأهالا عليه التراب.

في القبرِ هتف خالد بصوتٍ يحمل نكهةَ الموت: حان حِمامي قبل وقت حِمامي وانهارت الآمال العظام دون جبال الأسى الشاهقاتِ، وها هي ذي قوافلُ الدود تدنو منّي، لا بدَّ وأنّي وجبة دسمة لها، وذرات التراب كما لو أنّها حطام ذكرياتي وأشلاء ماضيي البهي البهيج وأنتِ يا حلم العمر الآفلُ يكاد طيفك لا يفارق ذاكرتي، ها قد أتاكِ أحدُ الأيام وتناهى إلى مسمعك أنّي لم أعدْ موجودٌ فقد غيّبني الموت ربّما، أو اغتصبت روحي وغدوت جسداً لا روحَ فيه.

حبيبتي

لا تبكي عليَّ أبداً بل ارفعي رأسك عالياً شامخاً فوقَ السحاب، وقولي لهم لقد أحبّني بكلِّ رجولةٍ ووفاء.

لا تبكي، لا تبكي عليّ فإنَّ دموعك ستعذّبني في لحدي.

لا تبكي، لا تبكي فحرامٌ أن تسيلَ دررُ عينيك على الأرض.

لا تبكي فدموعك تحرقُني.

وأشرقَ نورٌ مهيبٌ في أنحاءِ القبرِ ونزل ملكان وأجلسا الجسدَ المسجّى وسألا الميت:

- مَن ربّك؟ ومن نبيك؟ وما كتابك؟

قال خالد: بفضلِ الله أقولُ أنّ ربي الله ونبيّ محمد وكتابي القرآن سوى أن ملذّاتي أضلّتني عن الصراط السويّ، قد ارتكبتُ الآثام وضحّيتُ بالطهرِ الذي وضعني فيه بارئي، اشتريتُ الجور بالنور، ظلمتُ نفسي، زرعتُ الأيام طيشاً وتهوراً، كم مرّت أيام وأنا أقطع الصلة بيني وبينك يا ربُّ، كم سترتني يا الله، كم حفظتني يا ودود، ما أشدَّ حلمك مع عبدك الضائع الذي ولج دياجير الظلام متصنّعاً القوة ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بكَ يا الله، ها أنا ذا أدنو أكثر فأكثر فأكثر فأكثر.

ورقد خالد إلى برزخ ورأى فؤاده كوكب الأرض كما لم يسبق له أن رآه، رآه سابح كحلقة في فلاة في فراغ لا متناهٍ وكأنّه دانة زرقاء، وجد أرواحاً تتهاطل وأخرى تصعد في ملكوت الواحد الأحد في مشهد مهيب، ألفى أبواباً سبعة للسماء، وأيضاً عراجين تتدلّى منها الأرزاق والأقدار والأعمار.

حين القيامة انبجست الذراري وهتفت الأجساد:

ظلام ضيَّع أبانا بعدما غواه – وللأسى غصّةٌ، طالَ علينا الأمد فازدادت ذواتنا شتاتاً، من السماء أتى خلاصنا متجلّياً بأزهار النور، تفتّحت الأزهار وعمّ الضياء، قليلٌ منَّا اتّبع النور وأكثرنا ضالّون، قد هجرنا أجداثنا؛ النور قبلتنا والشمس فوقنا تحرق رؤوسنا؛ قد كرهتْ ظهورنا الأحمال. لكلّ منّا سعيه – وللذّكريات حكايات. زرعنا السّوء وننشُدُ الغفران.

وصدح صوتُ هاتفٍ ينادي: خالد، خالد.

في قرارة نفسه: يا ويلتي ستشهد عليّ رجلاي ويداي، سأُسأل عن عظيم العطايا التي هدرتها، يا ليتني كنتُ للصالحين خليلاً، يا ليتني اتّخذت درب الهدى سبيلاً.

- خالد، خالد. عم خالد كنتَ تحدّثنا وغفوت أكمل لنا الحكاية.

وفتح خالد عينيه فوجد نفسه في الحديقة العامة بحلبَ وقد بدا عليه مرور آلاف الدهور وحوله صبيةٌ متشوّقون لسماعه وهو يروي لهم حكايةً ما، وقطع عليه سرده مرور أربع نسوة عجائز.

تمت

حياةُ كلِّ فردٍ مدرسةٌ قائمةٌ بحدِّ ذاتِها ينهلُ منها الآخرون وبهذا العملِ سلّطْتُ الضوءَ على مسيرةِ أحدِ الشبابِ في سوريا في ظلِّ الأزمةِ الحاصلةِ منذ سبعةِ أعوامٍ ونيف مستخدماً لغةً سلِسةً بليغةً معاصرةً، وقد نهلتُ من خبراءَ بالروايةِ أثناء الكتابةِ لِتخرجَ بهذا الشكلِ مُتنوّعةً بين الحوارِ والسردِ مستعيناً ببعضِ الموروثِ العربيّ الأدبيّ العريقِ.

المؤلف